تعليقاتٌ علىٰ

الوصية الصغرى

تصنيف:

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية

رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ

لفضيلة الشّيخ

عبد الرّزّاق بن عبد المحسن العبّاد البدر

حفظهما الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

المجلس الأول

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلَّىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد؛ فهٰذه وصية مباركة، عظيمة، كبيرة النفع، غزيرة الفائدة، كتبها العَلَم الهُمام والشيخ الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بناءً علىٰ طلب سائل فاضل وشيخ كريم من علماء المغرب، طلب من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن يكتُب له وصية، وسيأتينا نصُّ سؤالِ هٰذا الفاضل وما فيه من رغبة واضحة وحرص بيِّن علىٰ الخير، وكان من ثمار هٰذا السؤال وثمرته العظيمة أنْ بقي جوابه كتابًا ورسالة تُقرأ ويستفيد منها طلاب العلم بين وقت وآخر، وفي زمن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ قُرئت عليه، قرأها عليه عدد من طلابه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وهي وصية نفيسة يحتاج إليها كل طالب علم، ويحتاج إليها كل مسلم لِما حوته من خيرٍ ونفعٍ ووصيةٍ جامعة.

وتُعرف هٰذه الوصية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بـ«**الوصيَّة الصُّغرىٰ**» كما أنها تُعرف كذلك بـ«وصية شيخ الإسلام لأبي القاسم السِّبتي» نسبةً إلىٰ بلد هٰذا العالم السَّائل الفاضل الذي وجَّه لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ السُّؤال، وهومن أهل «سِبتة» من بلاد المغرب.

و«سِبتة» بكسر السين وهي بلدة مُطِلّة علىٰ البحر المتوسط، ومنها تُرىٰ أسبانيا وجبل طارق، فهي في أقصىٰ المغرب، ومن هٰذه البلدة العالم المعروف صاحب التصانيف العديدة «القاضي عياض» فهو من أهالي سِبتة، وله كتبٌ عديدة مطبوعة من بينها كتاب يُقال له: «مشارق الأنوار علىٰ صِحاح الأخبار» وهو كتاب مطبوع، امتدح هٰذا الكتاب أحد الأفاضل فقال: (مشارق أنوار تجلت بسبتة) أي ببلدة سبتة التي منها القاضي عياض،

مشارق أنوارٍ تجلت بسبتة ... وذا عجبٍ كون المشارق بالمغرب

لأن سبتة في أقصىٰ المغرب فيقول: من عجب أن المشارق جاءت من الغرب، يعني بذلك كتابه «مشارق الأنوار».

الشاهد أنَّ أبا القاسم السِّبتي ـ وسيأتي إشارة إلىٰ تعريفٍ مختصر به ـ طلب من شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن يكتب له وصيةً جامعة في العلم والعبادة والتِّجارة والارتزاق «وصية جامعة» حدَّد موضوعات

ما طلب من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن يوصيه به، فعُرفت بـ«وصية شيخ الإسلام لأبي القاسم السِّبتي» نسبة إلى السائل، ونحن نعلم أن أكثر كتب شيخ الإسلام تُنسب إلى البلدان، وأكثر كتب شيخ الإسلام مبنية على أسئلة وُجِّهت إليه؛ بل إنه نقل عنه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى أنه قال: « ما كتبت كتابًا إلا بناءً على سؤال و بناءً على طلب»، وهٰذه الرِّسالة هي بناءً على طلب هٰذا السَّائل.

تُعرف بـ«الوصية الصغرى» لصغر حجمها، لأنَّ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ له وصية أخرى أوسع منها من حيث الحجم وعدد الأوراق تعرف بـ«**الوصية الكبرى**»؛ فعُرفت هٰذه الوصية وصيته لأبي القاسم السبتي بـ«الوصية الصغرى» تمييزًا لها عن الوصية الأخرى التي هي أكبر حجمًا وتعرف بـ«الوصية الكبرى»، وإلا في الحقيقة كلٌّ من الوصيتين كبرى، كل من الوصيتين وصايا كبرى عظيمة، لٰكن قيل عن هٰذه الوصية: «الصغرى» نظرًا إلى حجمها مقارنة بالوصية الأخرى، وكلٌّ من الوصيتين مطبوعة ضمن مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

أما «الكبرى» فهي في المجلد الثالث من صفحة ٣٦٣ إلى ص ٤٣٠، أي ما يقارب من ٧٠ صفحة.

و«الوصية الصغرى» في المجلد العاشر من صفحة ٦٥٣ إلى ص ٦٦٦، أي في١٣ صفحة.

وهٰذا هو السبب الذي لأجله إحداهما سميت «الصغرى» وهي هٰذه الوصية، والأخرى سُمِّيت «الكبرى» نظرًا للحجم، حجم كل من الوصيتين من حيث الصفحات وعدد الأوراق، لا من حيث الموضوع والمضمون.

أما من حيث المضمون والموضوع فكلٌّ منهما وصية كبرى كما أسلفت.

ثم أيضًا الذي يظهر والله أعلم أن هاتين التَّسميتين متأخرتان، يعني عُرف ذلك في وقت متأخر، أما في الكتب المتقدِّمة التي ذكرت مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ إنما ذكرت الوصيتين نسبة إلى السائل أو من كُتبت له.

فالوصية الصغرى تعرف بوصية شيخ الاسلام لأبي القاسم السبتي كما قدمت، والكبرى تُعرف بوصية شيخ الإسلام ابن تيمية لأتباع عدي بن مسافر.

وعدي بن مسافر كان معروفًا بالعبادة والزهد والمواعظ وكان يؤثِّر في الناس تأثيرا عظيمًا، قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان من أفاضل عباد الله الصالحين وأكابر المشايخ المتبعين وله في الأمة صيت

ولسان صدق مذكور»، لكن وُجد في طائفة كبيرة من أتباعه فيما بعد مغالاة فيه وإضافة أمور لا يليق أن تضاف إلىٰ بشر من باب الغلو والإطراء وزيادة الحد في المدح والثناء، فوقع بعض أو طائفة من أتباعه في الغلو في هٰذا الامام، فكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ نصيحة لهؤلاء ووصية عظيمة جدًّا.

ومن باب الإشارة والتنبيه أقول: من كان من الدعاة وطلبة العلم يوجد في أهله وفي بلده وفي مجتمعه من هم علىٰ جانب من الانحراف الطُّرُقي أو المغالاة أو نحو ذلك عليه أن يستفيد من وصية شيخ الإسلام لأتباع عدي بن مسافر، ينظر كيف دخل عليهم؟ وكيف خاطبهم؟ وكيف تلطَّف بهم؟ حتىٰ يستفيد من الطريقة إضافةً إلىٰ الاستفادة من العلم المتين الذي يقرِّره رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ؛ لأن طريقة الدخول علىٰ الناس -ولاسيما من عنده انحراف- تحتاج من الداعي إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ والواعظ والمذكِّر إلىٰ شيء من الحكمة وإلىٰ شيء من فتح القلوب بأسلوبٍ مناسب وكلمات طيبة وتدرُّج معه بالخطاب حتىٰ يصل معه إلىٰ ما يكون عليه فيه بإذن الله تأثير بذلك وفائدة.

فحقيقة من يقرأ وصية شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأتباع عدي بن مسافر، وكان عندهم أنواع من الانحرافات، وكيف خاطبهم؟ خطابًا لطيفًا؛ رفيقًا؛ متدرجًا؛ حكيمًا؛ نافعًا؛ حتىٰ وصل معهم إلىٰ المقصود في معالجة ما لديهم من انحراف، وبيان ما لديهم من خلل وأخطاء.

حديثُنا هو عن هٰذه الوصية، المعروفة بـ«**الصغرىٰ**»؛ وصية شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأبي القاسم السِّبتي، وأبو القاسم هٰذا له ترجمة في «معجم المحدثين» و«معجم الشيوخ»، وكلاهما للإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وفي «الدرر الكامنة» للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفي «الوافي بالوفيات» للصفدي.

والترجمة التي ذُكرت له ترجمة مقتظبة توضح شيئا وجانبا من حياته، وكان مما عرف به أنه رجل رُحَلة، صاحب رِحلة وتنقُّل بين البلدان، وجمع ما استفاده رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في رحلاته ولقاءاته بالشيوخ وسماعاته منهم وأخذه عنهم في كتاب مطبوع بعنوان «برنامج التُّجيبي»، وذكر أيضًا لقاءه بشيخ الإسلام وطلبه من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن يوصيه، وذكر نقلًا مختصرًا انتفع به من هٰذه الوصية التي أوصاه بها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، ويأتي الإشارة إليه.

وأبو القاسم: هو أبو القاسم، القاسم بن يوسف- طابق اسمه كنيته- بن محمد بن علي التُّجيبي السِّبتي المُغربي النجّار، له ترجمة كما قدمت في «معجم المحدثين» و«معجم الشيوخ» للذهبي و«الدرر

الكامنة» لابن حجر و«الوافي بالوفيات» للصفدي.

قال عنه الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الإمام المحدّث الرحّال علم الدين ولد في حدود سنة ٦٧٠ هـ، وقيل توفي في حدود سنة ٧٣٥هـ)، له برنامج مطبوع بعنوان «برنامج التُّجيبي» ضمّنه ما تلقاه من مرويات ومسموعات في رحلاته، وذكر فيه استفادته من هٰذه الوصية التي طلب هو من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يوصيه بها، فيقول في برنامجه: (وكان من جملة الوصية التي أوصاني بها التقي الفاضل أبو العباس ابن تيمية أن قال: ما في الكتب المصنّفة المبوبة كتابٌ أنفع من صحيح محمد بن إسماعيل) -وهٰذا النص سيأتي معنا في هٰذه الوصية- قال أبو القاسم: (وصدق ابن تيمية، واللهُ يفهمنا ما فيه ويرشدنا للعمل بمقتضاه بمنِّه وكرمه)، هٰذه المقولة منه تدل حقيقة على أنه أحسن الاستفادة من كلام شيخ الإسلام، وسترون في الوصية تركيز شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ على جانبين، جانب الفهم وجانب العمل، يؤكد عليهما، فلا يزال الرجل يذكر تأكيد شيخ الإسلام على عقل المعاني وفهم الدلالات، وعلى العمل والاتِّباع وفعل ما يتعلمه المتعلم والمتلقّي، ولهٰذا يقول: (صدق ابن تيمية، واللهُ يفهِّمنا ما فيه ويرشدنا للعمل بمقتضاه)؛ لأن شيخ الإسلام كان يؤكدعلى قضية الفهم ويؤكد على قضية العمل، وسيمر معنا ذلكم في مواضع من هٰذه الوصية العظيمة المباركة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هٰذه الوصية لشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كتبها وعمره لم يبلغ ستًّا وثلاثين «٣٦» سنة، ومع ذلكم كان السائل- أعني أبا القاسم التُّجيبي السِّبتي المُغربي- لمَّا طرح السؤال على شيخ الإسلام كان يقول في وصفه له: (بقية السلف وقدوة الخلف أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب)، والرجل الذي يقول هٰذه الكلمة رجل رُحَلة، رجل صاحب رحلات ولقاءات بالعلماء في البلدان -يتنقل في البلدان- ويقول في طرحه لهٰذا السؤال: (أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب)، لمَّا قال هٰذه الكلمة في حق شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لم يبلغ عمره وقتئذ ٣٦ سنة، فكان من وقت مبكر من عمره عُرف بإمامته وفضله ونبله وعلمه وانتشر صيته في الآفاق وعرفت مكانته، وكان الكتاب إذا صدر منه يلقى قيمة كبيرة، ليس في بلده وإنما في البلدان، يدلُّ لكون شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كتب هٰذه الوصية في هٰذا السن من عمره أنه وُجد في آخر إحدى نسخ هٰذه الوصية الخطية سماع لهٰذه الوصية على المصنف، مجموعة من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية منهم أخوه عبد الله المعروف بـ«شرف الدين» ومجموعة من تلاميذ شيخ

الإسلام قرأوها عليه، في ليلة قرأوها عليه وسجّلوا سماعهم علىٰ النسخة الخطية، وكثير من المخطوطات -وهٰذا يدركه المتمرس في مطالعة المخطوطات- يجد في أول المخطوط أو في آخره سماعات لأهل العلم، وهٰذه السماعات من الأهمية بمكان، يستفاد منها فوائد عظيمة جدا، ومما استفدناه من هٰذا السماع تحديد تقريبي لوقت تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لهٰذه الوصية.

حُدِّد تاريخ ذلك السماع بليلة الثالث من ربيع الآخر سنة (٦٩٧) في دار الحديث بدمشق، سنة ٦٩٧ حصل هٰذا السماع، ولا يلزم من ذلك أن يكون ألّف شيخ الإسلام هٰذه الرسالة قبل هٰذا السماع بأيام أو نحو ذلك، قد يكون قبله بأشهر أو بسنة أو نحو ذلك الله أعلم، لكننا نستفيد من ذلك أنها مؤلفة قبل هٰذا التاريخ الذي هو (٦٩٧) هـ، وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كما هو معلوم ولد سنة (٦٦١) هـ أي ٣٦ سنة، فأُلِّفت هٰذه الرسالة وعُمر شيخ الإسلام ابن تيمية أقل من (٣٦ سنة)، وفي هٰذا العمر تقريبًا أيضًا كتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ «العقيدة الواسطية»، وأيضًا قريبًا من هٰذا التاريخ كتب «الحموية» وعددًا من كتبه وتصانيفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

هٰذه مقدمة بين يدي هٰذه الوصية، أما من حيث المضمون والموضوع فكما قدمت هي وصية كبرىٰ جامعة ليست صغرىٰ، وصية كبرىٰ جامعة جمعت خيرًا عظيمًا وفضلًا كبيرًا ونفعًا وفائدة، وشملت هٰذه الوصية في مضامينها جانب التقوىٰ وجانب العبادة والعمل وجانب السلوك والأخلاق والأدب، وجانب أيضًا طلب العلم وبما يبدأ به طالب العلم، وأيضًا جانب طلب الرزق، شملت جوانب عديدة كتبها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإيجاز واختصار؛ لكنها مع وجازتها واختصارها حوت خيرًا عظيمًا وفائدة كبيرة.

سُؤَالُ أَبِي الْقَاسِمِ الْمَغْرِبِيِّ:

يَتفَضَّلُ الشَّيْخُ الْإِمَامُ، بَقِيَّةُ السَّلَفِ، وَقُدْوَةُ الْخَلَفِ، أَعْلَمُ مَنْ لَقِيت بِبِلَادِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؛ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ تيمية بِأَنْ يُوصِيَنِي بِمَا يَكُونُ فِيهِ صَلَاحُ دِينِي وَدُنْيَايَ، وَيُرْشِدُنِي إلَى كِتَابٍ يَكُونُ عَلَيْهِ اعْتِمَادِي فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَكَذَلِكَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَيُنَبِّهُنِي عَلَى أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَعْدَ الْوَاجِبَاتِ، وَيُبَيِّنُ لِي أَرْجَحَ الْمَكَاسِبِ. كُلُّ ذَلِكَ عَلَى قَصْدِ الْإِيمَاءِ وَالِاخْتِصَارِ، وَاللهُ تَعَالَى يَحْفَظُهُ، وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

هذا الآن السؤال الذي حرَّره وكتبه أبوالقاسم السبتي المغربي، وقدَّمه لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كان عنده سخاء في العلم عجيب للغاية، إضافة إلى سخائه بماله، ومن يقرأ منزلة السخاء في «مدارج السالكين» يقف على جوانب مشرقة وعجيبة ومضيئة من ذكر ابن القيم -وهو من خواص تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية- لسخاء شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ، كان عنده سخاء عجيب، حتى إنه ذُكر من سخائه: أن زائره إن رأى بين يديه كتابًا مَهْما كانت نفاسته وقيمته ومكانته وحاجة شيخ الإسلام إليه إن طلبه لم يردّه، وكان بعض طلابه قد يلومونه في ذلك لحاجته إليه، ولعلمه بحاجته ما كان يرده، ويقول: لا تردوا من طلب كتابا، وإذا سئل رَحِمَهُ اللهُ لا يكتفي في الإجابة بالإيجاز، يعني مثل هذا السؤال قد يُطرح على أحد فيعطيه كلمة واحدة مثلا أو كلمتين، بينما شيخ الإسلام كان يبسط الجواب بسخاء نفس ونُصح ولطف ودعاء وعبارات جميلة جدًّا وإيضاح وبيان، وكثيرًا ما كان يعتذر رَحِمَهُ اللهُ تعالى من السائلين لأن هذا الذي سمحت به الورقة، أي ما عنده ورق يكفي حتى يبيِّن له، فأحيانًا الورقة التي تأتيه من السائل يكتب على وجهها و على قفاها ثم يعتذر في آخرها أن هذا الذي سمحت به مثل هذه الورقة، وكثير من الفتاوى فيها هذا اللفظ، يعتذر شيخ الإسلام، وهذا أيضًا من سخائه رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

فالسائل طرح هذا السؤال على شيخ الإسلام ابن تيمية طالبًا وصية، وحدَّد ما يريد في هذه الوصية، قال: (يُوصِيَنِي بِمَا يَكُونُ فِيهِ صَلَاحُ دِينِي وَدُنْيَايَ) هذا **أولا**.

الأمر الثاني: (يُرْشِدُنِي إلَى كِتَابٍ يَكُونُ عَلَيْهِ اعْتِمَادِي فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ).

الأمر الثالث: (يُنَبِّهُنِي عَلَى أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَعْدَ الْوَاجِبَاتِ)، ما هي أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات؟ يعني بعد الفرائض وواجبات الدين.

الأمر الرابع: (يُبَيِّنُ لِي أَرْجَحَ الْمَكَاسِبِ) يعني في تجارتي أو زراعتي أو صناعتي أو غير ذلك، ما هي أرجح المكاسب؟ بماذا ينصحني في هٰذا الباب ؟

فتقريبا هٰذه أربع سؤالات، أراد هٰذا السائل من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن يكتب له فيها.

ثم ختم ذلك بقوله: (كُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ قَصْدِ الْإِيمَاءِ وَالِاخْتِصَارِ)، وهٰذا أيضًا من أسباب وجازة هٰذه الرسالة؛ لأن موضوعاتها موضوعات عظيمة وتحتمل بسطًا طويلًا وبيانًا موسَّعًا؛ لكن السائل أيضًا رغب من شيخ الإسلام ابن تيمية أن تكون علىٰ سبيل الإيماء والاختصار، فكتب وراعىٰ أيضًا طلب هٰذا السائل، فكانت علىٰ سبيل الإيماء والإيجاز والاختصار، هٰذا سؤال السائل.

ومما يُنبه عليه في هٰذا المقام أن أجوبة العلم كما أنها فيها بركة ونفع، فإن سؤالات السائلين أيضًا فيها نفع وبركة، كم من إنسان مثلا اهتدىٰ في مجلس بسبب سؤال سائل، يكون السَّائل ناصحًا راغبًا في فائدة المسلمين ويصدر منه السؤال عن رغبة صادقة وحرص علىٰ نفع الناس وربما دعوات صادقة أن يبارك الله في سؤاله وأن ينفع به، ثم يطرح السؤال ويكون سببًا لانتفاع الحاضرين أو انتفاع السائل أو انتفاع خلق لا يحصيهم إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعد ذلك كما هو الشأن في هٰذا السؤال الذي كتبه أبو القاسم، فكتب هٰذا السؤال فأجاب شيخ الإسلام بهٰذه الإجابة المختصرة العظيمة النفيسة، قُرئت علىٰ شيخ الإسلام في حياته، استفاد منها طلابه وأفادوا منها الناس، ولا يزال أهل العلم وطلابه يستفيدون منها بين وقت وآخر علىٰ مر الزمان.

فهٰذا حقيقةً مما يدعو طالب العلم إلىٰ أن يحرص علىٰ الصِّدق والإخلاص والنُصح في السؤال الذي يطرحه، لأن الناس يتفاوتون في السؤالات، أغراض الناس في السؤالات التي تطرح متفاوتة، من الناس من يطرح سؤالا ويريد شرًّا، يطرح سؤالا ويريد فتنة، يطرح سؤالا ويريد إثارة شبهة وإحداث بلبلة، إلىٰ غير ذلك من الأغراض، ولا يقبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من سؤالات السائلين إلا ما كان خالصًا لوجهه وابتغاء مرضاته وفيه الحرص علىٰ نفع النفس أو نفع الآخرين.

وانظر مثالًا في النصح في السؤال في وفد عبد القيس لما جاءوا إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام والحديث في «الصحيحين»، قالوا: يا رسول الله لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام وإن بيننا وبينك هٰذا الحي من كفار مُضر، فمرنا بقول فصل نُخبر به من ورائنا وندخل به الجنة -هٰذا هو الغرض: نخبر به

من ورائنا وندخل به الجنة- فالسؤال حقيقة النافع هو الذي يريد به السائل أن يرفع بـه جهـلًا عـن نفسـه وأن يرفع به جهلًا عن غيره، ولهٰذا يُنقل عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: العلم لا يعدله شـيء إذا صـلُحت النية، قيل وما صلاحها ؟ قال: أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك، والسؤال كـذلكم، السـؤال ينبغي علىٰ السائل ومن يطرح السؤال أن ينوي به رفع الجهل عن نفسه أو رفع الجهل عـن الآخـرين بمـا ينفعهم ويحقق لهم الفائدة العظيمـة والنفـع في ديـنهم وعبـادتهم وتقـربهم إلـىٰ ربهـم عَزَّوَجَلَّ. هٰـذا سـؤال السائل.

فَأَجَابَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أَمَّا «الْوَصِيَّةُ» فَمَا أَعْلَمُ وَصِيَّةً أَنْفَعُ مِنْ وَصِيَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ لِمَنْ عَقَلَهَا وَاتَّبَعَهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، وَوَصَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذًا لَمَّا بَعَثَهُ إِلَىٰ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

وَكَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ؛ فَإِنَّهُ قَالَ لَهُ: «يَا مُعَاذُ؛ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ».

وَكَانَ يُرْدِفُهُ وَرَاءَهُ.

وَرُوِيَ فِيهِ: أَنَّهُ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

وَأَنَّهُ يُحْشَرُ أَمَامَ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ - أَيْ بِخُطْوَةٍ.

وَمِنْ فَضْلِهِ أَنَّهُ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ مُبَلِّغًا عَنْهُ دَاعِيًا وَمُفَقِّهًا وَمُفْتِيًا وَحَاكِمًا إِلَىٰ أَهْلِ الْيَمَنِ.

وَكَانَ يُشَبِّهُهُ بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِبْرَاهِيمُ إِمَامُ النَّاسِ، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ تَشْبِيهًا لَهُ بِإِبْرَاهِيمَ.

ثُمَّ إِنَّهُ ﷺ وَصَّاهُ هٰذِهِ الْوَصِيَّةَ فَعُلِمَ أَنَّهَا جَامِعَةٌ، وَهِيَ كَذَلِكَ لِمَنْ عَقَلَهَا مَعَ أَنَّهَا تَفْسِيرُ الْوَصِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ.

بدأ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ هٰذه الوصية بحمد الله رب العالمين، (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وهٰذا الحمد به بُدئت سورة الفاتحة؛ أعظم سورة في كتاب الله جل وعلا.

و(الْحَمْدُ): هو الثناء علىٰ الله جل شأنه مع حبه، ويكون الحمد علىٰ المحاسن ويكون علىٰ الإحسان، الحمد يكون علىٰ المحاسن؛ أي علىٰ صفات الجلال ونعوت الكمال والأسماء الحسنىٰ للرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو يُحمَد عَزَّ وَجَلَّ علىٰ أسمائه، علىٰ صفاته، علىٰ جلاله، علىٰ عظمته، علىٰ كماله، علىٰ أفعاله جل وعلا.

ويُحمد أيضًا علىٰ نعمه وإحسانه وفضله وإنعامه.

فهو يُحمد علىٰ هٰذا وهٰذا، علىٰ الإحسان وعلىٰ المحاسن، يحمد علىٰ النعم والآلاء ويحمد علىٰ الأسماء والصفات.

فبدأ بحمد الله رب العالمين، ثم دخل مباشرة في الموضوع قال: (أَمَّا «الْوَصِيَّةُ»)، لأنه طلب من شيخ الإسلام أن يوصيه.

قال: (أَمَّا «الْوَصِيَّةُ») والوصية تعريفها: (أمرٌ أو نهيٌ بكلمة تجمع خيرًا عظيمًا وفائدةً كبيرة).

الوصية إما أمر أو نهي، لأن الوصية قد تكون وصية بأوامر وقد تكون أيضًا وصية بنواهي، تحذير بالنواهي.

* مثال الأول: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لمعاذ بن جبل: (يا معاذ؛ والله إني لأحبك، يا معاذ؛ أوصيك لا تدعنَّ دبر كل صلاة أن تقول: اللّٰهمَّ أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)، هٰذه وصية بأمر.

* والوصية بالنهي عن فعل أو نحو ذلك: الرجل الذي جاء للنبي عليه الصلاة والسلام، وقال: أوصني قال: «لا تغضب»، هٰذه وصية، وهي نهي عن فعل.

فالوصية إما أن تكون أمر بشيء أو نهي عن شيء أو تجمع الأمرين: الأوامر والنواهي، كما أن تقوىٰ الله ﷻ فيما سيأتي بيان ذلك جامعة للجانبين: فعل الأوامر وترك النواهي(شاملة للجانبين).

إذًا الوصية: هي إما أمر أو نهي أو هما معًا بكلمةٍ جامعة تجمعُ خيرًا كثيرًا.

قال: (أَمَّا «الْوَصِيَّةُ»): يعني أمَّا ما أوصيك به (فَمَا أَعْلَمُ وَصِيَّةً أَنْفَعُ مِنْ وَصِيَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ لِمَنْ عَقَلَهَا وَاتَّبَعَهَا) والمراد بهٰذه الوصية: (التَّقوىٰ)، تقوىٰ الله ﷻ التي هي وصيّة الله للأولين والآخرين، كما سيأتي في الآية التي ذكرها شيخ الإسلام، وهي وصية النبي ﷺ لأمته كما يأتي في حديث معاذ، وأتت في أحاديث كثيرة عنه صلوات الله وسلامه عليه الوصيَّة بتقوىٰ الله جل وعلا.

لاحظ هنا أن شيخ الإسلام ـ وهٰذا من دقيق نُصحه وجميل بيانِه ـ أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ مباشرة ذكر النَّصيحة بآية قرأها وحديث ذكره، وهٰذا حقيقةً من بديع النُّصح وجميل البيان، والربط بكتاب الله وسنة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه، فرأسًا لما أوصىٰ؛ أوصىٰ بالكتاب والسُّنة، وإنما قدم بمقدِّمة يحرِّك فيها السامع والمتلقي إلىٰ العناية بما سيُذكر له من كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، ولهٰذا لاحظ، لم يقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما الوصية فأوصيك بتقوىٰ الله تعالىٰ، لم يقل هكذا، أما الوصية فأوصيك بتقوىٰ الله تعالىٰ فإن تقوىٰ الله.. وأخذ يبين ثم ذكر الآية والحديث، وإنما مباشرة جعله يأخذ الوصية بالتَّقوىٰ من الآية

نفسها، ومن الحديث نفسه مباشرة، وهٰذا من دقة بيانه ودقة نُصحه رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ، قال: (أَمَّا «الْوَصِيَّةُ» فَمَا أَعْلَمُ وَصِيَّةً أَنْفَعُ مِنْ وَصِيَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ لِمَنْ عَقَلَهَا وَاتَّبَعَهَا)، هٰـذه التَّقدِمـة مـا هـي إلا تحريـكٌ للقلب وللسامع والمتلقِّي حتىٰ ينتبه للآية والحديث، وإلا فالوصية هي الآية والحديث مباشرة.

قال: (فَمَا أَعْلَمُ وَصِيَّةً أَنْفَعُ مِنْ وَصِيَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ) عليه الصلاة والسلام؛ لكن هٰذا النفع من وصية الله والانتفاع من وصية الله ووصية رسوله عليه الصلاة والسلام مشروط بشرطين: العقل والاتباع، قال: (لِمَنْ عَقَلَهَا وَاتَّبَعَهَا)، وهٰذان شرطان أو قل ضابطان لابد منهما لينتفع بهٰذه الوصية، فإن لم يوجدا أو لم يوجد أحدُهما لم يُنتفع بهٰذه الوصية، فمن لم يعقل الوصيّة، لم يعرف معناها، لم يدر المراد بها.. كيف يطبقها؟ ـ وقد قيل: كيف يتقي من لا يدري ما يتقي ـ، فالذي لا يعلم كيف يعمل بالوصية وهو أصلا فاقدا للعلم، وفاقد الشيء لا يعطيه.

فإذن الشرط الأول: أن يعقلها، أن يفهمها، أن يعيها، يعقلها من العقل، والعقل -عقل الإنسان- سمي عقلًا لأنه يعقل صاحبه ـ من العِقال ـ، فيعقلها أي يكون ضابطًا لها، فاهمًا لها، مستوعبًا لها بعقله، عارفًا بمدلولها بمعناها.. بالمراد بها..، (لِمَنْ عَقَلَهَا وَاتَّبَعَهَا)، واتبعها: أي عمل بها.

فإذن إنْ عُقلت الوصية واتُبعت ـ يعني عُمل بها ـ حصل الانتفاع، فإنْ لم تُعقل، أو عُقلتْ ولم تُتبع ولم يُعمل بها لم يحصل انتفاعٌ، من لم يعقل الوصية فهو ضال ـ وهٰذه الوصية أعظم ما أوصىٰ الله به ـ، فمن لم يعقل أعظم شيء أوصىٰ الله به فهو ضال، ومن عقله ولم يعمل به فالله ﷻ يغضب عليه.

أعظم وصية وأنفع وصية وصية الله للأولين والآخرين من خلقه ألا وهي: تقوىٰ الله، فمن لم يعرف التقوىٰ التي أوصىٰ الله بها الأولين والآخرين فهو إنسان ضال، ومن عرف التَّقوىٰ التي أوصىٰ الله بها الأولين والآخرين ولم يعمل بها يغضب الله ﷻ عليه.

ولهٰذا قيل: (من فسد من عُبّادنا ففيه شبه من النَّصارىٰ، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود)، يعني الذي لا علم له فيه شبه من النصارىٰ، ومن عنده علم لا يعمل به ففيه شبه من اليهود، ونحن نقرأ في سورة الفاتحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ [الفاتحة]، لهٰذا شيخ الإسلام أكّد علىٰ قضية عقل الوصية وأيضًا العمل بها.

ولنرجع إلىٰ كلمة السّبتي ـ أبي القاسم رَحِمَهُ اللهُ ـ لما ذكر وصية شيخ الإسلام له بكتاب «صحيح

البخاري»، أعقب ذلك بقوله: (والله يفهّمنا ما فيه)؛ لأن ابن تيمية أكّد كثيرًا في وصيته له على عقل الوصية وفهمها، فقال: (والله يفهّمنا ما فيه ويرشدنا للعمل بمقتضاه)، وبهٰذه الدعوة التي دعا بها أبا القاسم نحن جميعًا ندعوا، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ الكريم رب العرش العظيم أن يفهّمنا جميعًا ما في هٰذه الوصية من علم وخير وفائدة، وأن يرشدنا للعمل بمقتضاها، إنَّه تبارك وتعالىٰ سميعٌ قريب مجيب.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١])، هٰذه وصية ربِّ العالمين، هٰذه وصية عظيمة من أجلّ وأعظم مُوصي وهو رب العالمين جل شأنه وسُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هٰذه وصية الله جلّ وعلا للأوّلين والآخرين، أوصىٰ الجميع بتقواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، فوصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للأوّلين والآخرين من خلقه: تقواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بهٰذا أوصىٰ جلَّ شأنه الأولين والآخرين من خلقه، ولهٰذا تجد هٰذه الوصيّة بالتّقوىٰ وذكر التقوىٰ في القرآن من كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متكرِّرة كثيرًا، حتىٰ قيل: إنّ أكثر لفظة تكرَّرت ـ يعني من الألفاظ الشرعية ـ أكثر لفظة تكرّرت في القرآن هي هٰذه اللفظة «تقوىٰ الله»، ممَّا يدل علىٰ عِظم شأن التقوىٰ وعِظم مكانتها وأنها أعظم وصية، ويكفي هٰذه الوصية عِظمًا وجلالة ومكانة وقدرًا أنها ـ كما دلَّت هٰذه الآية الكريمة ـ وصية الله تبارك وتعالىٰ للأولين والآخرين من خلقه، وفي القرآن ذِكرٌ في مواضع كثيرة لثمار التّقوىٰ، وآثار التقوىٰ، وحبّ الله للمتقين، ومعيّته للمتقين، وأنّ العاقبة للمتقين، إلىٰ غير ذلكم من الثمار والآثار العظيمة والعواقب الحميدة التي جعلها الله تبارك وتعالىٰ للمتّقين.

قال: (وَوَصَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذًا لَمَّا بَعَثَهُ إِلَىٰ الْيَمَنِ، فَقَالَ: « يَا مُعَاذُ؛ اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ») الأحاديث التي فيها وصية النبي ﷺ للمسلمين وللصحابة بالتقوىٰ كثيرة جدًّا، لكن ثمّة لطيفة لأجلها اختار شيخ الإسلام ابن تيمية –تحديدًا- وصية النبيِّ ﷺ لمعاذ بالتّقوىٰ، مع أن هناك أحاديث كثيرة عامّة ومقيَّدة فيها يوصي صلوات الله وسلامه عليه بتقوىٰ الله، في حديث العرباض وأحاديث كثيرة جدًّا فيها الوصية بتقوىٰ الله لأفراد ولعموم، فاختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ لوصية النبي ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأمر ومقصد عظيم يأتي بيانه عقب الوصية، يأتي بيانه والتنبيه عليه من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ عقب ذكر وصية النبيِّ ﷺ لمُعاذ، قال: (وَوَصَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ

مُعَاذًا) أي معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه ـ (لَمَّا بَعَثَهُ إِلَىٰ الْيَمَنِ) والنَّبي عليه الصلاة والسلام بعثه إلىٰ اليمن في السَّنة العاشرة قبل حجَّة الوداع، وقيل: قبل ذلك، وبقي في اليمن قاضيًا ومعلِّمًا وحاكمًا إلىٰ حياة أو خلافة أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وجاء في خلافته ثم ذهب إلىٰ الشام وتوفي هناك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه، (قال له عليه الصلاة والسلام: «يَا مُعَاذُ؛ اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»)، هٰذه الوصية جمعت أمورًا ثلاثة أوصاه النبيُّ ﷺ بها -يأتي الحديث عنها مفصَّلا بعض الشيء في لقائنا القادم بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (وَكَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ) وسيبين منزلته العليّة من وجوه عديدة، إذًا لماذا خصَّ النبي عليه الصلاة والسلام هٰذه الوصية بالتقوىٰ لمعاذ ـ مع أن هناك وصايا كثيرة لأفراد ولعموم بتقوىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ لماذا خصَّ النبي عليه الصلاة والسلام هٰذه الوصية، ما الحكمة في ذلك؟ لاحظ الآن يقول: ـ (وَكَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ) وسيذكر وجوه عديدة تبين علو منزلة معاذ، وتقريبًا ذكر ستة وجوه كلُّها تدل علىٰ علو منزلة معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ورفعة مكانته.

إذن لماذا انتقىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ هٰذه الوصية تحديدًا؟ مع أن النبي ﷺ نُقلت عنه في أحاديث وصايا بالتقوىٰ لأفراد ووصية بالتَّقوىٰ أيضًا لعمومه، ثم لمّا ذكر الوصية قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَكَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ)؛ يُنبِّه رَحِمَهُ اللهُ بذلكم أن الشخص مهما كانت مكانته وعلت منزلته علمًا وعبادةً وفضلًا ونُبلًا فهو بحاجة إلىٰ أن يوصَىٰ بالتقوىٰ، يكفيك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[الأحزاب:١]، وهٰذا المعنىٰ حقيقة يخفىٰ علىٰ كثيرٍ من الناس بسبب ضعف الإيمان، وبعضهم ربَّما ينزعج من كثرة سماعه بالوصية بالتَّقوىٰ، في خُطبة أو موعظة أو كلام عالم أو نُصح، ربما ينزعج من ذلك، وربّما قال: وهل أنا لست من المتّقين حتىٰ يقول: اتق الله، عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما قال له رجل وهو خليفة: اتق الله، قال: (لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها) هؤلاء يعرفون التّقوىٰ ومكانتها وحاجة العبد مهما كانت مكانته إلىٰ أن يُذكَّر بتقوىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلىٰ أن يوصىٰ بتقوىٰ الله.

فمعاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه كانت له منزلة عالية: علمًا، عبادة، خُلُقا، أدبًا، رفعة شأن، علو منزلة، ولما بعثه النبي عليه الصلاة والسلام قال له: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ» ألم يكن معاذ قد سمع من النبي ﷺ مرارًا في خطابته وفي وصاياه للناس، وكان يردفه ـ كما سيأتي معنىٰ الحديث ـ يردفه النبي ﷺ معه علىٰ الحمار؟!

ـ سمع مرارا ـ ولما أراد أن يذهب إلىٰ اليمن قال له: « اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ».

فشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ينبه بذلك علىٰ أمرٍ عظيم غاية؛ ألا وهو: أن العبد مهما علَت مكانته وارتفعت منزلته يحتاج ويحتاج إلىٰ التقوىٰ وإلىٰ الوصية بتقوىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأراد أن يجلّي هٰذا المعنىٰ فاختار وصية النبيِّ ﷺ لمعاذ تحديدًا، ثم أتبعها بعلوِّ مكانة معاذ، وكأنه يقول: إنَّ الشخص مهما علت مكانته يحتاج إلىٰ أن يُوصىٰ بتقوىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (وَكَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ ؛ فَإِنَّهُ قَالَ لَهُ: «يَا مُعَاذُ؛ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبّكَ»)، حلف له بالله، ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من صغار الصحابة ويخاطبه النبي ﷺ هٰذا الخطاب العظيم الذي يدل علىٰ كمال تواضع النبي عليه الصلاة والسلام وأيضًا كمال نُصحه ﷺ ، («يَا مُعَاذُ؛ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبّكَ»)، «يا معاذ؛ أوصيك: لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللّٰهمَّ أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، هٰذا الآن وجه من الوجوه التي تدل علىٰ علو منزلة معاذ ومكانته العالية.

الأمر الثاني: قال: (وَكَانَ يُرْدِفُهُ وَرَاءَهُ) والنبي ﷺ أردف عددًا من الصحابة وراءه علىٰ الحمار، وأحد العلماء المتقدِّمين جمع رسالةً بعنوان: «مَنْ أردفهم النبي ﷺ»، فذكر عددًا حصل لهم أن أردفهم النبي صلوات الله وسلامه عليه -من هؤلاء معاذ- والحديث في إرداف النبيِّ ﷺ له علىٰ الحمار في «الصحيحين» يرويه معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (كنت رديف النبي ﷺ علىٰ حمار فقال: «يا معاذ؛ أتدري ما حق الله علىٰ العباد، وما حق العباد علىٰ الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله علىٰ العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد علىٰ الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئا»، قلت: ألا أبشر الناس قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»)، فكان يردفه صلوات الله وسلامه عليه وراءه ، هٰذه ثانية.

ثالثا: من وجوه بيان مكانته ومنزلته العلية، قال: (وَرُوِيَ فِيهِ: أَنَّهُ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ) ، وهٰذا جاء في حديث يُرفع إلىٰ النبي ﷺ، قال: «معاذ بن جبل أعلم الناس بحلال الله وحرامه» قال: (وَرُوِيَ فِيهِ: أَنَّهُ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ)، هٰذا الأمر الثالث.

الأمر الرابع: قال: (وَأَنَّهُ يُحْشَرُ أَمَامَ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ) رتوة: فسَّرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: (أَيْ بِخُطْوَةٍ)، وهٰذا يدل علىٰ تقدمه وإمامته في العلم ومكانته في العلم، والرتوة لها معاني:

منها المعنىٰ الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

ومن معانيها ـ من معاني رتوة ـ: أي رمية بحجر، ورَتوة علىٰ وزن رَمية، وجاء في بعض روايات هٰذا الحديث أنه قال: (يُحشر أمام العلماء برَتوة بحجر) أي: رمية بحجر.

سواء قيل: هٰذا أو ذاك، الحديث يفيد تقدم معاذ يوم الحشر علىٰ أهل العلم، وأنه يحشر أمامهم متقدما عليهم، سواء قيل بخطوة أو رميه حجر، أو غير ذلك من المعاني التي قيلت في هٰذه اللّفظة.

الأمر الخامس: من فضائل معاذ مما أورده شيخ الإسلام قال: (وَمِنْ فَضْلِهِ أَنَّهُ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ مُبَلِّغًا عَنْهُ دَاعِيًا وَمُفَقِّهًا وَمُفْتِيًا وَحَاكِمًا إِلَىٰ أَهْلِ الْيَمَنِ) فهٰذا أيضًا مما يدل علىٰ فضل معاذ ومنزلته العلية. وبعث النبي ﷺ له إلىٰ اليمن ثبت به الحديث في «الصحيحين» وغيرهما.

الأمر السادس: (وَكَانَ يُشَبِّهُهُ بِإِبْرَاهِيمَ) هكذا في النسخ المطبوعة للكتاب، وجاء في نسخة: (وكانوا يشبهونه بإبراهيم الخليل عليه السلام) ولم أقف علىٰ حديث مرفوع إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام فيه تشبيهه ﷺ لمعاذ بإبراهيم، وقوله: (وَكَانَ يُشَبِّهُهُ) الضمير حسب السياق يعود إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام، وجاء في نسخة خطية لهٰذا الكتاب: (وكانوا يشبهونه)، وهٰذا المعنىٰ مروي في بعض المصادر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نشبه معاذ بن جبل بإبراهيم، فيحتمل أن العبارة: (وكان يُشبَّه ـ بحذف إحدىٰ الهاءين ـ أو وكانوا يشبهونه -كما هو مثبت في إحدىٰ النسخ الخطية لهٰذا الكتاب- (بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام، وَإِبْرَاهِيمُ إِمَامُ النَّاسِ. وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَقُولُ: إِنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ؛ تَشْبِيهًا لَهُ بِإِبْرَاهِيمَ) ـ، إذًا كان معروفًا رضي الله عنه وأرضاه عند الصحابة بإمامته.. وعلمه.. وفقهه.. ومكانته.. وعبادته.. حتىٰ قال فيه ابن مسعود هٰذا الذي سمعتم، قال: (إِنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أمّة أي: إمامًا في الخير، وقدوة في الخير، وهٰذه الكلمة تطلق علىٰ من اجتمعت فيه صفات الخير، فأصبح إماما للناس في الخير لاجتماع صفات الخير فيه.

(قَانِتًا لِلَّهِ): والمراد بالقنوت المداومة علىٰ طاعة الله تعالىٰ، و(حَنِيفًا) أي: مائلا، الحَنَف: الميل عن الباطل إلىٰ الحق، وعكسه:وهو الميل من الحق إلىٰ الباطل يسمىٰ: «جَنَف» ـ ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ [المائدة:٣] ، فـ«الجَنَف»: هو الميل عن الحق إلىٰ الباطل، و«الحَنَف»: هو الميل عن الباطل إلىٰ الحق، فكان حنيفا ولم يك من المشركين.

فهٰذه الآن ستة أمور أوردها شيخ الإسلام أراد بها أن يبين مكانة هٰذا الصحابي، وعلو منزلته، ومع

ذلك فالنبي ﷺ لما بعثه إلىٰ اليمن أول ما أوصاه به تقوىٰ الله، قال: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ».

والحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» يقول كلاما ـ معناه ـ يقول: (وقد انتفع معاذ بهٰذه الوصية ـ وصية النبي ﷺ له بتقوىٰ الله ـ انتفاعًا عظيمًا)، وذكر قصة في هٰذا الباب وهي: أن عمر بن الخطاب أرسله في أمر فمضىٰ فيه ورجع فقالت له زوجته: لم تأت بشيء - يعني ما جاء لأهله ولبيته بشيء لما رجع- فقال: كان معي ضاغط، ففهمت أن عمر قد أرسل معه شخص يتابعه، قال: كان معي ضاغط، أي: يضغطني ويمنعني، وهو يقصد تقوىٰ الله ﷻ ومراقبة الله ﷻ.

وأما ثُبوت هٰذه القصة فليس عندي فيها شيء؛ لكن نقلها الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ شاهدًا علىٰ هٰذا المعنىٰ.

لما ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هٰذه الأمور لبيان مكانة معاذ قال: (ثُمَّ إِنَّهُ ﷺ وَصَّاهُ هٰذه الْوَصِيَّةَ) أي: مع هٰذه المكانة العالية الرفيعة لهٰذا الصحابي الجليل وصَّاه بهٰذه الوصية، إذًا الوصية بالتقوىٰ يحتاج إليها كل أحد، وفي كل وقت.. وفي كل حين.. وحيثما كان..(اتّق الله حيثما كنت)، هٰذه وصية يحتاج إليها كل أحد في كل وقت.

(ثُمَّ إِنَّهُ ﷺ وَصَّاهُ هٰذه الْوَصِيَّةَ فَعُلِمَ أَنَّهَا جَامِعَةٌ) أي: أنها وصية جمعت الخير كله.

ثم يعلق شيخ الإسلام علىٰ ذلك فيقول: (وَهِيَ كَذَلِكَ لِمَنْ عَقَلَهَا) يؤكد علىٰ عقْلِ المعنىٰ، وأيضًا يؤكد كما مرّ وكما سيأتي علىٰ العمل بهٰذه الوصيَّة، قال: (مَعَ أَنَّهَا تَفْسِيرُ الْوَصِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ) ثم أخذ يفصل وجه أنها جامعة، ثم أيضًا وجه أنها تفسير الوصية القُرآنية، ويأتي هٰذا في لاحق كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

هٰذا، ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا أن يجعلنا جميعًا من عباده المتقين.

المجلس الثاني

أَمَّا بَيَانُ جَمْعِهَا، فَلِأَنَّ العبدَ عَلَيْهِ حقَّانِ:

- حَقٌّ للهِ عَزَّوَجَلَّ.
- وَحَقٌّ لِعِبَادِهِ.

ثُمَّ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ لَابُدَّ أَنْ يُخِلَّ بِبَعْضِهِ أَحْيَانًا، إمَّا بِتَرْكِ مَأْمُورٍ بِهِ، أَوْ فِعْلِ مَنْهِيٍّ عَنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ» وَهٰذِهِ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ، وَفِي قَوْلِهِ: «حَيْثُمَا كُنْتَ» تَحْقِيقٌ لِحَاجَتِهِ إلَى التَّقْوَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا» فَإِنَّ الطَّبِيبَ متى تَنَاوَلَ الْمَرِيضُ شَيْئًا مُضِرًّا أَمَرَهُ بِمَا يُصْلِحُهُ. وَالذَّنْبُ لِلْعَبْدِ كَأَنَّهُ أَمْرٌ حَتْمٌ.

فَالْكَيِّسُ هُوَ الَّذِي لَا يَزَالُ يَأْتِي مِنَ الْحَسَنَاتِ بِمَا يَمْحُو السَّيِّئَاتِ. وَإِنَّمَا قُدِّمَ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ «السَّيِّئَة» وَإِنْ كَانَتْ مَفْعُولَةً، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا مَحْوُهَا؛ لَا فِعْلُ الْحَسَنَةِ، فَصَارَ كَقَوْلِهِ فِي بَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ: «صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ».

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلَّىٰ الله عليه و علىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد؛ فإنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لمَّا طلب منه أبو القاسم السِبتي المغربي رحمهما الله أن يوصيه بوصية جامعة، أوصاه بتقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ التي هي وصية الله تبارك وتعالىٰ للأولين والآخرين من خلقه، وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في ذلكم قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ [النساء:١٣١].

ومن السنة أورد حديث معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما بعثه النبي ﷺ إلىٰ اليمن وأوصاه بقوله: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»، ونبّه شيخ الإسلام إلىٰ أن هٰذه الوصية لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع إمامته وفضله، وساق وجوهًا من الدلائل والشواهد علىٰ فضله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وعلوّ منزلته، منبِّهًا بذلك إلىٰ أنَّ الشخص مهما علت مكانتُه وارتفعت درجته لا يزال محتاجًا إلىٰ هٰذه الوصية، ثم نبّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ إلىٰ أن هٰذه الوصية التي أوصىٰ بها النبيُّ ﷺ معاذًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ= إلىٰ أنها وصية جامعة، هٰذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ نبّه إلىٰ أنها تفسير الوصية القرآنية، فهاذان تنبيهان متعلقان بوصية

النبي عليه الصلاة والسلام:

الأول: أنها جامعة.

والثاني: أنها تفسير الوصية القرآنية؛ التي مرت معنا ﴿ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

فشرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان هذين الأمرين، بيان أولا: أنها جامعة، ثم سيأتي بعد صفحات بيانُ وجه كونها تفسيرًا للوصية القرآنية.

فبدأ أولًا ببيان كونها وصية جامعة، قال: (أَمَّا بَيَانُ جَمْعِهَا)،أي بيان كونها جامعة، بيان كونها وصية جامعة، (فَلِأَنَّ العبدَ عَلَيْهِ حَقَّانِ: حَقٌّ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ. وَحَقٌّ لِعِبَادِهِ):

فالعبد عليه حقان: حق لله: وهو العبودية، وإخلاص الدين، وإفراده تبارك وتعالىٰ بالعبادة، وقد مرَّ معنا حديثُ معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما كان رديف النبيِّ عليه الصلاة والسلام علىٰ حمار فقال: «يا معاذ أتدري ما حق الله علىٰ العباد، وحق العباد علىٰ الله؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله علىٰ العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد علىٰ الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا». فإذًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حق علىٰ عباده، وللعباد بينهم حقوقٌ متفاوتة بحسب الصِّلة والعلاقة، فهناك مثلًا حقٌّ للأبوين، وهناك حقٌّ لذوي الرحم، وهناك حقٌّ للجيران وهكذا..، حقوقٌ جاءت بها الشريعة للناس بعضهم مع بعض، فالعبد عليه حقان: حقٌّ لله جل شأنه، وحقٌّ للعباد.

قال: (ثُمَّ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ) أي سواءً كان لله أو للعباد (لَا بُدَّ أَنْ يُخِلَّ بِبَعْضِهِ أَحْيَانًا) لأن الإنسان لا يسلم من النقص والخلل والتقصير، وقد صحَّ في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كل بني آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون»، وفي الحديث القدسي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «يا عبادي إنكم تُذنبون أو تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم»، وأيضًا جاء في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»، فالإنسان لابد من الخطأ والتقصير ـ ولهٰذا سيأتي معنا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَالذَّنْبُ لِلْعَبْدِ كَأَنَّهُ أَمْرٌ حَتْمٌ) أي أنَّ الخطأ من طبيعة الإنسان، ولابد أن يقع في الخطأ.

قال: (الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ لَا بُدَّ أَنْ يُخِلَّ بِبَعْضِهِ أَحْيَانًا) ما نوع هٰذا الإخلال؟ قال: (إِمَّا بِتَرْكِ مَأْمُورٍ بِهِ، أَوْ فِعْلِ مَنْهِيٍّ عَنْهُ) الإخلالُ لا يخلو من حالتين:

- إما ترك مأمورٍ به: أمره الله ﷻ بواجب فتركه لم يفعله؛ قصَّر فيه؛ فرَّط في فعله.

- أو يكون فَعلَ منهيًا عنه: نهاه الله ﷻ عن أمر، حرّم عليه أمرًا ففعله، فإذًا الخطأ الذي يقع فيه ابن آدم يكون من هاتين الجهتين: إمَّا ترك مأمور به أو فعل منهيٍّ عنه.

(فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ» وَهٰذه كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ): أي تجمع فعل المأمور وترك المحظور؛ لأن التقوىٰ عند الإطلاق وفي الآي والأحاديث الآمرة بها تجمعُ فعل الأمر وترك النَّهي، بينما إذا ضُمَّ إليها غيرُها؛ كأن يُضم مثلًا إلىٰ التَّقوىٰ البر أو الإيمان أو نحو ذلك تكون التَّقوىٰ في ترك المنهي وما ضُمَّ إليها في فعل المأمور؛ لكنها عند الوصية بها علىٰ الإطلاق تتناول الأمرين معا؛ فعل المأمور وترك المنهي؛ لأن التقوىٰ من الوقاية.

المراد بالتقوىٰ: أن تجعل بينك وبين ما تخشاه من سخط الله وعِقابه وقايةً تقيك. ما هي هٰذه الوقاية؟ الوقاية هي: فعل المأمور وترك المنهي.

ولهٰذا فإن أحسن ما عُرِّفت به التقوىٰ من عبارات السلف وألفاظهم في تعريفها، تعريف طلق بن حبيب -من علماء التابعين-، وتعريفه أثنىٰ عليه جمعٌ من الأئمة منهم: شيخ الإسلام والحافظ الذَّهبي والإمام ابن القيم وابن رجب رحمهم الله وجمعٌ من أهل العلم؛ وأنه تعريف جامع.

قال رَحِمَهُ اللهُ في تعريفها: (**تقوىٰ الله: أن تعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله رجاء ثواب الله، وأن تترك معصية الله علىٰ نور من الله خيفة عذاب الله**).

فجمع رَحِمَهُ اللهُ في تعريفه للتقوىٰ بين فعل الأمر وترك النهي، واشترط في كل منهما العلم، قال: (علىٰ نور)، والنور: العلم، أي: أن تكون علىٰ علمٍ بالمأمور به وعلىٰ علمٍ بالمنهي عنه، تتعلَّم المأمور لتفعله وتتعلم المنهي لتتركه، ولهٰذا ألَّف العلماء رحمهم الله كُتبًا في الكبائر؛ لا يذكرون فيها إلا الكبائر، الأولىٰ.. الثانية.. الثالثة.. الرابعة.. الخامسة.. إلىٰ آخره، يذكرون كل كبيرة مع أدلة تحريمها وبيان خطرها وعقوبتها، لماذا؟ لأن العبد المؤمن كما أنَّه مطلوبٌ منه أن يعلم المأمور به ليفعله، فإنَّه كذلك مطلوبٌ منه أن يعلم المنهي عنه ليتركه، إذْ كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟! ، من لا يعرف المحرمات كيف يتقيها؟! من لا يعلم ما نهاه الله عنه كيف يتقيه؟! ولهٰذا لما عَظُم جهل الكثير من الناس بالكبائر وأضرارها وعقوباتها: فعلوها ولم يبالوا، ووقعوا فيها ولم يبالوا، وبعضهم لمّا نُبِّه مثلا علىٰ كبيرة ما

وعقوبتها وما يترتّب عليها من أثر؛ أسِف على الوقت الذي مضى من حياته وهو لم يعلم بذلك، أي أنه يقصد أنه لو جاءه هذا العلم المبكر ربما كان الأمر على خلاف هذه الحال، فإذًا العبد يحتاج فعلًا إلى العلم بالمأمور ليفعله، ويحتاجُ أيضًا في الوقت نفسه إلى العلم بالمنهي ليجتنبه، ويحتاج فيهما إلى الرجاء والخوف؛ رجاء رحمة الله ﷻ وخوف عقابه جلَّ شأنه، فهذا التعريف: تعريف جامع وعظيم لبيان حقيقة التقوى، وأنَّ التقوى عند الوصية بها على الإطلاق تجمع فعل الأوامر وترك النواهي.

لم يكتف عليه الصلاة والسلام في وصيته لمعاذ بقوله: «اتَّقِ اللهَ »؛ بل ضمَّ إلى ذلك قوله: «حَيْثُمَا كُنْت»، أي أن التَّقوى يحتاج أن يلازمها العبدُ في كل أوقاته؛ وفي جميع أحواله؛ في الحضر والسفر؛ في الليل والنهار؛ في العلانية وفي السر، في أي مكان، في أيِّ مجال، في أي وقت، في بيتك مع أولادك تحتاج إلى أن تستصحب التَّقوى، في عملك، في وظيفتك، في تجارتك، في صلاتِك إذا دخلت المسجد، في جميعِ أمورك تحتاج أن تكون مستصحبًا للتَّقوى؛ في كلِّ أحوالك، قال: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْت»، أي لازم تقوى الله ﷻ في الحضر والسفر، في السِّر والعلانية، في الغيْب والشهادة، في كل أحوالك، في جميع شؤونك، لازم تقوى الله ﷻ حيثما كنت، لأنك أينما تكون رب العامين يراك، لأنك أينما تكون رب العالمين ﷻ يراك.. يطلع عليك لا تخفى عليه منك خافية ﷻ.

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

فيجب على العبد أن يلازم تقوى الله ﷻ حيثما كان، في أي مكان يكون فيه: يراه الناس؛ لا يرونه، يعلمون به أو لا يعلمون، إلى غير ذلكم، يجب عليه أن يلزم تقوى الله ﷻ.

قال: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْت»، وهذه كلمةٌ جامعة جمعت الخير كله، وأتت عليه أجمعه، ولهذا كانت وصيةً للأوَّلين والآخرين، وكانت وصية النبي ﷺ دومًا لأمته أفرادًا وجماعات.

قال: (وَفِي قَوْلِهِ: «حَيْثُمَا كُنْت» تَحْقِيقٌ لِحَاجَتِهِ إِلَى التَّقْوَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ) أي أنَّ العبد محتاجٌ إلى تقوى الله ﷻ في كل لحظة؛ في كل نَفَس؛ في كلِّ حركة؛ في كل شأن من شؤونه؛ في كل وقت من أوقاته، يجب أن تكون كل خطوة يتحرَّكها العبد بتقوى الله؛ يقوم.. يقعد.. يأخذ.. يُعطي.. يتكلم.. يعمل.. إلى آخره.. كل ذلكم يستصحب فيه تقوى الله،« اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْت ».

قال: (تَحْقِيقٌ لِحَاجَتِهِ إِلَى التَّقْوَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ):

- في السر: أي حال خلوة الإنسان بحيث لا يراه أحد من الناس.
- والعلانية: عندما يكون مختلطًا بهم.

والإنسان حال اختلاطه بالناس تجده يصانع ويساير ويعمل علىٰ ما عليه من هو مختلط بهم؛ لكن في سره؛ في خلوته تنكشف له هو حقيقةُ نفسِه، ورب العالمين ﷻ مطلع عليه في سره وعلانيته، وفي غيبه وشهادته، ولهٰذا ينبغي علىٰ العبد أن يعمل علىٰ إصلاح نفسه وتحقيقه لتقوىٰ ربه ﷻ في كل أوقاته؛ في الغيب والشهادة، والسر والعلانية.

والسر والعلانية والغيب والشهادة هٰذا بالنسبة لنا نحن، أما الله ﷻ فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، لكن هي بالنسبة لنا سر، لما يختفي الإنسان عن أعين الناس أصبح في سر، أصبح في غيب، لا أحد يطلع عليه..، هٰذا بالنسبة لنا، أما بالنسبة لرب العالمين: السر عنده علانية والغيب عنده شهادة، لا تخفىٰ عليه خافية: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد] كلهم سواء عند رب العالمين جل شأنه؛ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ والاستخفاء بالليل أشدّ ما يكون خفاءً عن الناس وعن أعينهم ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ الكل عند الله سواء.

فإذن: العبد يجب عليه أن يتقي الله ﷻ ربه في سره وعلانيته؛ في غيبه وشهادته؛ في كلّ أحواله وجميع شؤونه، وهٰذا ما يبيِّن لنا أن هٰذه الوصية عظيمة مباركة -وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه- وصيةٌ جامعة، جمعت الخير كله.

ثم قال: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا» الاتباع السيئة بالحسنة أي: الإتيان بها مباشرة؛ لا تؤخِّر، كأنه ينبِّه في هٰذا إلىٰ أنَّ العبد مهما جاهدَ نفسه علىٰ ملازمة التقوىٰ لابدَّ من قصور؛ لابد من خطأ؛ لابد من زلة؛ «كل بني آدم خطَّاء»، فإذا بدر منك خطأ، بدر منك تقصير، بدا منك تفريط، بدا منك فعل منهي، «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ»، يعني بادر؛ سارع إلىٰ الحسنة ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾ [هود] «فأتبع السيئة الحسنة».. بادر.. لا تؤخر.. لا تؤجل.. لا تسوِّف.. وإنما سارع وبادر..، وهٰذه وصية عظيمة جدًّا، وثمينة للغاية؛ أنَّ العبد ينبغي عليه ـ ولاسيما في وقت الزَّلة والخطأ والذنب ـ

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

أن يبادر إلىٰ الحسنات ويسارع إليها..، قال: «وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ» أتبعها أي: ألحقها بها مباشرة.. سارع إليها.. بادر إليها..، ولا يحول بينك وبينها نفس أمَّارة أو شيطان رجيم أو قرناء سوء أو غير ذلك، سارع مسارعة إلىٰ الحسنات، «وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»، ومعنىٰ «تَمْحُهَا» أي: تُزيل أثرها، تُذهِب أثرها، وفي القرآن قال: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هٰذا معنىٰ تمحها، ﴿يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: تمحها: أي تُذهِب أثرها.

وهٰذه الوصفة: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»، هٰذه وصفة أطباء القلوب، لأن القلوب تمرض مثل الأبدان، والقلب إذا أصيب بشيء من المرض؛ الجوارح تتبعه في: إما ترك المأمور أو فعل المحظور.

ولهٰذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنَّ الطَّبِيبَ متىٰ تَنَاوَلَ الْمَرِيضُ شَيْئًا مُضِرًّا أَمَرَهُ بِمَا يُصْلِحُهُ) يصف له شيئًا يناسب هٰذا المضرّ الذي تناوله المريض من أجل أن يصلح، وربّما أيضًا قال له الطبيب: أكثر منه -يعني مرة في الصباح ومرة في المساء- أحيانًا يقول له عشر مرات تشرب من هٰذا حتىٰ يصلح لك الضرر الذي حصل بهٰذا الذي أدخلته إلىٰ جوفك من أمور مضرّة للبدن، وكلّما بادر إلىٰ هٰذه الأمور المُصلحة وسارع إليها كان أنفع لبدنه.

قال: (فَإِنَّ الطَّبِيبَ متىٰ تَنَاوَلَ الْمَرِيضُ شَيْئًا مُضِرًّا أَمَرَهُ بِمَا يُصْلِحُهُ. وَالذَّنْبُ لِلْعَبْدِ كَأَنَّهُ أَمْرٌ حَتْمٌ) مرّ معنا بعض الأحاديث في هٰذا المعنىٰ، وأيضًا الأحاديث في هٰذا الباب كثيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «كتب علىٰ ابن آدم حظُّه من الزنىٰ لا محالة»، وذكر زنىٰ العين، وزنىٰ السمع، وزنىٰ البصر، وزنىٰ اليد، فقال: (كَأَنَّهُ أَمْرٌ حَتْمٌ) «حَتْمٌ»: أي لا محالة لابد أن يكون ولابد أن يقع.

إذن والحالة هٰذه: الذنب في حق الإنسان أمر حتم؛ لابد أن يخطئ، «كل بني آدم خطاء».. فما المطلوب؟ قال: (فَالْكَيِّسُ) -يعني الحاذق.. الفطن.. العاقل.. النبيه.. (هُوَ الَّذِي لَا يَزَالُ يَأْتِي مِنَ الْحَسَنَاتِ بِمَا يَمْحُو السَّيِّئَاتِ) هٰذا هو الفطن، (لَا يَزَالُ يَأْتِي مِنَ الْحَسَنَاتِ): أي يستكثر منها، يجاهد نفسه علىٰ الإكثار من الحسنات، وينوع مجالاتها: من صلاة.. من صيام.. من صدقات.. من برٍّ وصلات.. إلىٰ غير ذلكم من أنواع وأبواب الإحسان؛ يستكثر منها، فهٰذا من الفطنة والنباهة وحسن التصرف، (فَالْكَيِّسُ هُوَ الَّذِي لَا يَزَالُ) يعني مستمرًا؛ مداومًا (يَأْتِي مِنَ الْحَسَنَاتِ بِمَا يَمْحُو السَّيِّئَاتِ) أي بما يزيل أثرها.

قال: (وَإِنَّمَا قُدِّمَ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ «السَّيِّئَةَ» وَإِنْ كَانَتْ مَفْعُولَةً) لأنه قال في الحديث: « وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا »، يقول: (وَإِنَّمَا قُدِّمَ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ «السَّيِّئَةَ» وَإِنْ كَانَتْ مَفْعُولَةً) قوله: «أتبع السيئةَ الحسنة» كل منهما مفعول، «السيئة»: مفعول أول، و«الحسنة»: مفعول ثانٍ، لٰكِن «السيئة» من حيث المعنىٰ مفعول به، لأنه قال بعدها: «تمحها» أي: تمحو الحسنةُ السيئةَ، فـ«السيئة» من حيث المعنىٰ مفعولة، يقول: (وَإِنَّمَا قَدَّمَ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ «السَّيِّئَةَ» وَإِنْ كَانَتْ مَفْعُولَةً) لماذا؟ قال: (لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا مَحْوُهَا)، المقصود بالذِكر هنا في الحديث محوها، ولهٰذا قُدِّمت.

تنبّه لقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا مَحْوُهَا؛ لَا فِعْلُ الْحَسَنَةِ، فَصَارَ كَقَوْلِهِ فِي بَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ: «صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ»)، لاحظ: قدّم (عليه)، أي: (البول)، لم يقل صبُّوا ذنوبا من ماء عليه، لماذا؟ قُدم الجار والمجرورالذي هو «عَلَيْهِ»، (الذي هو البول)، قدم بالذكر لأنه هو المقصود إزالة ماذا؟ إزالة الأثر، هٰذا هو المقصود، ليس المقصود صب الماء أصالة، وإنما المقصود إزالة الأثر، فقدم لأنه هو المقصود، أيضًا: لما كان المقصود إزالة أثر السيئة ومحو أثرها قدمت، وهنا وجه الشبه ظاهر لأن كلًا منهما تطهير، هٰذا تطهير حسي وهٰذا تطهير معنوي، كلٌّ منهما تطهيرٌ، كلٌّ منهما إزالة أثر، هٰذا إزالة أثر ذنوب، وهٰذا إزالة أثر نجاسة (نجاسة البول)، فكلٌّ منهما تطهيرٌ، وهٰذا حقيقةً من جمال البيان عند شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ وحُسن الربط أيضًا بين المعاني والأشباه للتَّوضيح، فكلٌّ منهما تطهير: هٰذا تطهيرٌ حسي وهٰذا تطهير معنوي، ولما كان المقصود في كلٍّ إزالة الأثر قُدِّم هٰذا المقصود في الحديثين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْحَسَنَاتُ مِنْ جِنْسِ السَّيِّئَاتِ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمَحْوِ.

وَالذُّنُوبُ يَزُولُ مُوجَبُهَا بِأَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: التَّوْبَةُ.

وَالثَّانِي: الِاسْتِغْفَارُ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ. فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ يَغْفِرُ لَهُ إِجَابَةً لِدُعَائِهِ وَإِنْ لَمْ يَتُبْ.

فَإِذَا اجْتَمَعَتْ التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ فَهُوَ الْكَمَالُ.

الثَّالِثُ: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الْمُكَفِّرَةُ.

إِمَّا «الْكَفَّارَاتُ الْمُقَدَّرَةُ»: كَمَا يُكَفِّرُ الْمُجَامِعُ فِي رَمَضَانَ، وَالْمُظَاهِرُ، وَالْمُرْتَكِبُ لِبَعْضِ مَحْظُورَاتِ الْحَجِّ، أَوْ تَارِكُ بَعْضِ وَاجِبَاتِهِ، أَوْ قَاتِلُ الصَّيْدِ بِالْكَفَّارَاتِ الْمُقَدَّرَةِ وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ: هَدْيٌ وَعِتْقٌ وَصَدَقَةٌ وَصِيَامٌ.

وَأَمَّا «الْكَفَّارَاتُ الْمُطْلَقَةُ» كَمَا قَالَ حُذَيْفَةُ لِعُمَرَ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي: أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ، يُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الْقُرْآنُ وَالْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ فِي التَّكْفِيرِ: بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَالْجُمْعَةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحَجِّ، وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا: مَنْ قَالَ كَذَا، وَعَمِلَ كَذَا غُفِرَ لَهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ لِمَنْ تَلَقَّاهَا مِنَ السُّنَنِ خُصُوصًا مَا صُنِّفَ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْحَسَنَاتُ مِنْ جِنْسِ السَّيِّئَاتِ) ليس هٰذا بلازم، يعني ليس ما يكفر السيئة لابد أن يكون من جنسها؛ لكن تكفير السيئة بما هو من جنسها من الحسنات أولىٰ وأحرىٰ وأجدر، والعبد يستكثر من هٰذا وذاك، يجاهد نفسه علىٰ حسنات من جنس الخطأ.

مثلا إن كان خطؤه عقوقًا؛ يعمل ببر والديه ويستكثر منه، حتىٰ مثلًا بعض الناس يستمر في العقوق إلىٰ أن يموت أحد أبويه، فيبقىٰ مجال البر حتىٰ بعد الوفاة، فيحاول أن يستكثر من أبواب البر لوالديه، ومجالات الإحسان حتىٰ ولو كان بعد الوفاة.

إذا كان مثلا الخطأ غيبة لإنسان، أو نميمة: أفسد بين شخصين، لابد أن يأتي بحسنات مثلها حتىٰ تكفر ذلك، مثل أن يصلح ما أفسد من قطيعة، ما تسبب فيه من قطيعة، هٰذه حسنة تمحو تلك السيئة، إذا اغتاب

شخصًا فعمل علىٰ الثناء عليه وذكره وطلب مثلًا المسامحة منه، حتىٰ ولو لم يكن مباشرة، إذا كان يترتب علىٰ قولك له: إنني اغتبتك وقلت فيك كذا وكذا فسامحني، إذا يترتب عليه مفسدة لا يلزم أن تقول له، لكن عمومًا تقول له: قصرت في حقك، لابد من خطأ، أنت رجل كريم، أرجو أن تسامحني، ونحو ذلكم من العبارات، ثم تُثني عليه، تذكره بالخير، أنت بحاجة إلىٰ هٰذه الحسنات وإلا يأتي العبد يوم القيامة يحملها ذنوبًا تؤخذ من صحيفة حسناته كما في حديث المفلس: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: من لا درهم له ولا دينار قال: «المفلس الذي يأتي بصلاة وصيام وصدقة، ويأتي وقد شتم هٰذا قذف هٰذا وأخذ مال هٰذا وضرب هٰذا فيؤخذ من حسناته فيعطون».

إذن العبد يحرص علىٰ هٰذا الذي نبّه عليه شيخ الإسلام وهو: أن تكون الحسنات من جنس السيئات، يعني مثلًا: إذا كانت تفريطًا -مثل ما مثلنا قبل قليل- فيحرص أن تكون الحسنة من جنسها، وكما أسلفتُ ليس ذلكم بلازم؛ لكنه أجدر وأحرىٰ وأولىٰ.

قال: (فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمَحْوِ) هٰذا تعليل لما سبق، والتعليل يدلُّ علىٰ أنه ليس شرطًا أو لازمًا لكنه أبلغ في المحو، قال: (وَالذُّنُوبُ يَزُولُ مُوجَبُهَا بِأَشْيَاءَ) (مُوجَبُها) بفتح الجيم لأنه يقال: «مُوجِب» بكسرها يراد به السبب، ويقال: «مُوجَب» بفتحها ويراد به المُسبب، فإذًا (يَزُولُ مُوجَبُهَا) أي ما توجبه الذنوب من عقوبات، وما يترتَّب عليها من عقوبات، هٰذه العقوبات التي ترتَّبت وانبنت علىٰ تلك الذنوب تزول هٰذه بأشياء، ومهما كان الذنب هناك أشياء تُزيل موجَبات الذنوب، أي ما توجبه الذنوب من عقوبات مهما كان الذنب.

الله جلَّ شأنه يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، فإذن العبد يحتاج فعلًا -وهٰذا سيُنبه عليه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ- حاجة شديدة جدا إلىٰ معرفة هٰذه الأمور التي هي موجبات محو الذنوب.

قال: (وَالذُّنُوبُ يَزُولُ مُوجِبُهَا بِأَشْيَاءَ)، هٰذه الأشياء تُسمّىٰ: «موانع لحوق الوعيد»، إذا أذنب العبد ذنبًا ترتَّب علىٰ الذنب وعيد، ترتب عليه عقوبة، وللحوق هٰذه العقوبة به موانع، فتسمَّىٰ «موانع لحوق الوعيد» وتسمىٰ أيضًا: «المُمَحِّصات»؛ تُمحِّص العبد من تلك الذنوب، تطهِّره منها ، فالعبد فعلًا بحاجة إلىٰ أن يعرف هٰذه الأشياء.

وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أربعةَ أشياء وجميعها في هٰذه الدار؛ دار الدنيا، لأنَّ المُمحصات منها: في الدنيا وهي هٰذه الأربعة، ومنها: في البرزخ (القبر)، ومنها: يوم القيامة، الممحصات:

- منها: ما هو في الدنيا.
- ومنها: ما هو في البرزخ.
- ومنها: ما هو في يوم القيامة.

فذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في هٰذه الوصية المُمحِّصات الأربع التي في الدنيا، يحرص عليها العبد في حياته الدنيا ، قال: (أَحَدُهَا: التَّوْبَةُ) والتوبة كما ثبت في الحديث تهدِمُ ما كان قبلها، من تاب من الذَّنب تاب الله عليه مهما كان الذنب، إذا كانت التَّوبة نصوحًا: ندم، وأقلع، وعزم ألا يعود، فإذا كانت التوبة نصوحًا فإن ذنبه يُغفر مهما كان ذنبه، ولا ينبغي علىٰ الإنسان أن يقنط أو ييأس أو يأتيه الشيطان ويقول له: ذنبك ليس كالذنوب أنت فعلت.. وأنت فعلت.. وأنت فعلت.. والآن جاي تتوب، مثلك يقول له: ماله توبة، وإذا ابتُلي أيضًا بإنسان لا بصيرة له في دين الله ربَّما أيضًا قال له: بمثل هٰذا العدد من الذنوب ما أظن لك توبة، مثل قصة الذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا ثم طمعت نفسه في التوبة، فوجد عابدًا، لا فقه له في دين الله، عابدا من العباد مشتغل بالصلاة والعبادة والذكر إلىٰ آخره.. وقال له: هل لي من توبة؟ أنا قتلت تسعة وتسعين نفسا، قال: تسعة وتسعين نفس!!! ليس لك من توبة فقتله، كمَّل به المائة.

ثم لم يزل حريصًا علىٰ التوبة؛ فلقي عالمًا قال: ما الّذي يحول بينك وبينها؟ اذهب إلىٰ بلد كذا وكذا فإن فيها قومًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، إلىٰ آخر القصة، وهي معروفة.

أعجبني أحد طلاب العلم في قصة حديثة العهد، كان يذكر لي أنه يعمل في الدعوة بلغة بلده عن طريق الإنترنت، وأسلم علىٰ يديه ما يزيد علىٰ الثلاثمائة دخلوا الإسلام، يقول: تراسلت عن طريق الإنترنت مع امرأة فقالت لي: أنا مقتنعة تمامًا أن الإسلام هو الدين الحق، يقول: فأرسلت لها، قلت: وما الذي يمنعك؛ وقد اقتنعت أنه الدين الحق أن تدخلي في هٰذا الدين؟، قالت: هٰذا الدِّين العظيم الذي رأيت وعرفت أنه الحق، وعرفت عظمة الدِّين، قالت: ما أظن أنه يقبل مثلي، انظر كيف دخل عليها الآن، اقتنعت الآن أن الدين الإسلامي هو الدين الحق، قالت: ما أظن أن الإسلام يقبل مثلي!! أنا امرأة راقصة، دائمًا في الرقص والعُهر والخمور؛ فمثلي لا يقبله الدين، ما أظن أنه يقبله، يقول –مباشرة–

أرسلت لها، قلت لها: أريد أن أسألك سؤالًا؛ لكن أجيبيني بصراحة: كم في حياتك قتلت من شخص؟ هل قتلت خمسين شخصا؟ تعجبت قالت: لا ما قتلت، قال: ولا ثلاثين ولا أربعين، قالت: والله ما قتلت ولا واحد، يقول: فأوردت لها الحديث فأسلمت مباشرة، أوردت لها حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفسا فأسلمت.

إذا تاب الإنسان توبة نصوح، توبة صادقة، يمحو الله ﷻ بتوبته أيَّ ذنب، فالشيطان أحيانًا إذا وجد الإنسان اقتنع، يأتيه من هٰذا المدخل ويقول: ذنبك ليس كالذنوب الأخرىٰ، فذنبك لا يُغفر، لا مجال لأنْ تتوب.

الشاهد: التوبة تَجُبُّ ما قبلها، تهدم ما كان قبلها، مهما كان الأمر، الله جل شأنه يقول: -وانظر الذنوب الكبار التي ذكرها- ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ أمَّهات الذنوب، كبار الذنوب، أكبر الكبائر، وإذا كان الحكم فيها ما سيأتي، فكيف بما هو دونها؟ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان]، من تاب تاب الله عليه، شِرك، قتل، زنىٰ، أيًا كان ، من تاب وصدق مع الله ﷻ في توبته تاب الله عليه ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان]، اللّٰهمَّ اجعلنا ممن يتوب إليك متابًا يا رب العالمين.

قال: (وَالثَّانِي: الِاسْتِغْفَارُ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ) الاستغفار كم نُفرِّط فيه، مع أن أمر الاستغفار عَجَب، ومن يقرأ الأحاديث في فضله ومكانته، أمر الاستغفار عجب، يكفي قول النبي عليه الصلاة والسلام: (طوبىٰ لمن وجد في صحيفته يوم القيامة استغفارًا كثيرًا)، نستغفر الله العظيم ونتوب إليه، كان نبيُّنا عليه الصلاة والسلام -مع أن رب العالمين جل شأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر- كثير الاستغفار، حتىٰ قال أبو هريرة رضي الله عنه: (ما رأيت أحدًا أكثر من رسول الله ﷺ يقول: أستغفر الله وأتوب إليه).

فقال: (الِاسْتِغْفَارُ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ) ولهٰذا ينبغي علىٰ الإنسان أن يجعل دائمًا علىٰ لسانه الاستغفار، أستغفر الله وأتوب إليه.. أستغفر الله وأتوب إليه.. أستغفر الله وأتوب إليه.. يكثر من ذلك، وجاء في

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

حديث أن النبي ﷺ: ما أصبح غداة يوم إلا استغفر الله مائة مرّة، ناهيك عن استغفاره عليه الصلاة والسلام في المجالس، استغفاره في ختم المجلس، استغفاره عقب الصلوات، استغفاره عقب الحج، ختم حياته كلّها عليه الصلاة والسلام بقوله: «اللّهمَّ اغفر لي وألحقني بالرفيق الأعلىٰ»، حياته كلها استغفار وختمها أيضًا ﷺ بالاستغفار، مع أنه ﷺ عبدٌ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر.

قال: (وَالثَّانِي: الِاسْتِغْفَارُ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ. فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ يَغْفِرُ لَهُ إِجَابَةً لِدُعَائِهِ وَإِنْ لَمْ يَتُبْ) وفي الحديث القدسي يقول الله ﷻ: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك»، الله جل شأنه من أسمائه «الغفور» ويحب الغفران، ويغفر الذنوب ﷻ، ويجيب الدعاء، وقولك: (أستغفر الله) هٰذا سؤال، السين في (أستغفر الله) للطلب، أي: أطلب منك يا الله أن تغفر لي، والله ﷻ لا يرد من دعاه ولا يخيب من ناجاه.

قال: (فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ يَغْفِرُ لَهُ إِجَابَةً لِدُعَائِهِ وَإِنْ لَمْ يَتُبْ. فَإِذَا اجْتَمَعَتْ التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ فَهُوَ الْكَمَالُ)، إذا اجتمعت التوبة والاستغفار يعني قال مكررًا مستغفرًا وهو أيضًا تائب من الذنب ومقلع عنه ونادم علىٰ فعله، قال: (فهو الكمال).

قال: (الثَّالِثُ: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الْمُكَفِّرَةُ.

إِمَّا «الْكَفَّارَاتُ الْمُقَدَّرَةُ»: كَمَا يُكَفِّرُ الْمُجَامِعُ فِي رَمَضَانَ، وَالْمُظَاهِرُ، وَالْمُرْتَكِبُ لِبَعْضِ مَحْظُورَاتِ الْحَجِّ، أَوْ تَارِكُ بَعْضِ وَاجِبَاتِهِ، أَوْ قَاتِلُ الصَّيْدِ بِالْكَفَّارَاتِ الْمُقَدَّرَةِ وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ: هَدْيٌ وَعِتْقٌ وَصَدَقَةٌ وَصِيَامٌ) هٰذه كلها تسمىٰ الكفارات، ومعنىٰ «كفارات» أي: تكفر الخطأ، تكفر الذنب، تكفر التقصير، تكفر الخلل الذي وقع فيه العبد، وهٰذه الكفارات حسنات، والله ﷻ جعل هٰذه الأبواب -أبواب البر- تكفِّر للعبد ما وقع فيه من تقصيرٍ، يخطئ ثم يتصدق مثلًا، أو يخطئ ويعتق رقبة، فهي أبواب إحسان، هٰذه الأنواع: الهدي والعتق والصدقة، هٰذه كلها أبواب إحسان تصل إلىٰ الآخرين.

أروي لكم طريقةً ذكرها لي أحد الأفاضل، يقول: اتصل بي رجل وقال: والله ما عندي شيء أُعطي أولادي، قال: والله ما عندي شيء طعامًا أُؤكل أولادي، يقول: أنهيت المكالمة، أخذت دقائق، اتصل بي واحد قال: والله حلفت يمين وأبغىٰ كفارة ولا أدري أين أُعطيها؟، قلت: هات موجود، فهٰذا يحلف ويخطيء ويكفر، فإذًا هي مجالات، مثل هٰذه الأخطاء التي تقع جعلها الله ﷻ أبوابًا تَسُد ماذا؟ حاجات،

هٰذا أيضًا من رحمة الله ﷻ.

من رحمة الله ﷻ أن الإنسان عندما يخطيء وجُعلت هٰذه الكفارة تسد حاجات الفقراء والمساكين والمحتاجين والمعاويز، تصل إليهم، يقول: في لحظة واحدة، ما أخذت لحظات، هٰذا يتصل يقول: ما عندي شيء، وهٰذا يتصل يريد أن يكفِّر يمينه بإطعام عشرة مساكين، فأخذت منه وأوصلت لهٰذا المحتاج.

إذن هٰذه أبواب جعلها الله ﷻ كفارات لما يقع فيه العبد من خطأ، وهي كما وصفها شيخ الإسلام كفارات مُقدَّرة، يعني كل خطأ من هٰذه الأخطاء له كفارة مقدرة، جاء تقديرها بالشرع: عتق رقبة، إطعام ستين مسكينا، إطعام عشرة مساكين، إطعام ستة مساكين، ذبح شاة.. إلىٰ غير ذلك.. كفارات مقدرة ومحددة، محددة النوع ومحددة أيضًا العدد، الذين يُعطون من هٰذه الكفارات.

قال: (وَإِمَّا «الْكَفَّارَاتُ الْمُطْلَقَةُ» كَمَا قَالَ حُذَيْفَةُ لِعُمَرَ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي: أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ، يُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ) والحديث في «الصحيحين»، إذن هٰذه الحسنات التي يقوم بها العبد: صلاة وصيام وصدقة وأمر بالمعروف ونهي عن منكر وأنواع البر الأخرىٰ، هٰذه كلها كفارات: تمحو السيئات، مثل ما مرَّ معنا قريبًا ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، «أتبع السيئة الحسنة تمحها». إذًا العبد يحتاج إلىٰ الصلاة، إلىٰ الصيام، إلىٰ الصدقة، إلىٰ الأمر بالمعروف، إلىٰ النهي عن المنكر، إلىٰ الدعوة إلىٰ الله ﷻ، أنواع البر.

ولا نُغفل في هٰذا الجانب الدعوة وتعليم الخير، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «الدال علىٰ الخير كفاعله».

الآن أضرب لكم مثالا: شيخ الإسلام ابن تيمية بهٰذا الكتاب ناهيك عن كتبه الأخرىٰ يصله من أجره كل ما تعلم متعلم واستفاد مستفيد «من دعىٰ إلىٰ هُدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئا» فهٰذه المجالات: مجال الحسنات والصدقات وأنواع البر، يحرِصُ العبد علىٰ الاستكثار منها، قال: (وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الْقُرْآنُ وَالْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ فِي التَّكْفِيرِ: بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَالْجُمُعَةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحَجِّ، وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا: مَنْ قَالَ كَذَا، وَعَمِلَ كَذَا غُفِرَ لَهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) يعني مثلا قوله التكفير بالصلوات الخمس والجمعة والصيام، جاء في الحديث الصحيح عن النبي

ﷺ أنه قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلىٰ الجمعة ورمضان إلىٰ رمضان مكفِّرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»، قال عليه الصلاة والسلام في الحج: «من حجَّ ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كمن ولدته أمه» هناك أحاديث كثيرة يذكر فيها «من فعل كذا غُفر له» مثل: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه»، من قام ليلة القدر، من صام يوم عرفة، من صام يوم عاشوراء، أحاديث كثيرة، أشار إليها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (مَنْ قَالَ كَذَا، وَعَمِلَ كَذَا غُفِرَ لَهُ، أَوْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) وهي كثيرة لمن تلقاها من السُّنن خصوصًا ما صُنِّف في فضائل الأعمال، يعني أهل العلم صنفوا مصنفات خاصة في فضائل الأعمال، والعبْدُ فعلا يحتاج إلىٰ أن يمر علىٰ هٰذه الكتب حتىٰ يعرف الأعمال الصالحة وفضائلها حتىٰ تنشط همته، وترتفع عزيمته للإكثار من هٰذه الأعمال، لأن العبد يحتاج إلىٰ أمرين:

- إلىٰ علمٍ يهدي.
- وهمّة عالية تُعطي.

فإذًا يحتاج العبد إلىٰ القراءة في هٰذه الكتب، وفي كتاب الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «رياض الصالحين» عدد كبير من الأحاديث في هٰذا الباب «باب فضائل الأعمال» وهناك أيضًا مصنفات خاصة أُفردت في هٰذا الباب.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِهٰذا مِنْ أَشَدِّ مَا بِالْإِنْسَانِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حِينِ يَبْلُغُ، خُصُوصًا فِي هٰذه الْأَزْمِنَةِ؛ وَنَحْوِهَا مِنْ أَزْمِنَةِ الْفَتَرَاتِ الَّتِي تُشْبِهُ الْجَاهِلِيَّةَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَنْشَأُ بَيْنَ أَهْلِ عِلْمٍ وَدِينٍ، قَدْ يَتَلَطَّخُ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ بِعِدَّةِ أَشْيَاءَ، فَكَيْفَ بِغَيْرِ هٰذا؟!

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ ؟ قَالَ: فَمَنْ ؟».

هٰذا خَبَرٌ تَصْدِيقُهُ فِي قَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩] وَلِهٰذا شَوَاهِدُ فِي الصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ.

وَهٰذا أَمْرٌ قَدْ يَسْرِي فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الدِّينِ مِنَ الْخَاصَّةِ ؛ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ مِنْهُمْ ابْنُ عيينة ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ الْيَهُودِ قَدِ ابْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الْعِلْمِ، وَكَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ النَّصَارَىٰ قَدْ أُبْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الدِّينِ، كَمَا يُبْصِرُ ذَلِكَ مَنْ فَهِمَ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ ثُمَّ نَزَّلَهُ عَلَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِهٰذا مِنْ أَشَدِّ مَا بِالْإِنْسَانِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ)، (الْعِنَايَةَ بِهٰذا) أي الأمور الثلاث التي هي: التوبة والاستغفار والأعمال الصالحة المكفرة، وقلت لكم: أنها التي في هٰذه الدنيا أربعة، الرابع: ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ لاحقًا بقوله -وسيأتي معنا-: (وَمِمَّا يُزِيلُ مُوجِبَ الذُّنُوبِ: الْمَصَائِبُ الْمُكَفِّرَةُ) هٰذا رابعًا، ولكن: لماذا لم يذكره هنا مع هٰذه الثلاث، أجيبوا؟

لأنه هنا يقول: (وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِهٰذا مِنْ أَشَدِّ مَا بِالْإِنْسَانِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ)، المصائب المكفرة هٰذه ما تستطيع أنت تعتني بها، تستجلب لنفسك مصائب تكفر بها الذنوب!!!

إذن هنا: هٰذه الأمور الثلاثة مما يُطلب من العبد أن يعتني بفعلها، التي هي: التوبة والاستغفار والأعمال الصالحة، أما المصائب فهٰذا شيء يُبتلىٰ به الإنسان وليس منه طلبٌ له، ولا يجوز أصلًا أن يطلب الإنسان المُصيبة أو يجر علىٰ نفسه مثلًا مصيبة أو مرضًا أو نحو ذلك، يقول: من أجل أن أكفر ذنوبي.

أعيد مرة ثانية، شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (وَالذُّنُوبُ يَزُولُ مُوجِبُهَا بِأَشْيَاءَ)، قال: أحدها، الثاني،

الثالث، التوبة والاستغفار والحسنات أو الأعمال الصالحة المكفِّرة، ثم الرابع ذكره مؤخرًا ولم يذكره مع هٰذا العدد، لم يقل هنا رابعا، لغرض قصده رَحِمَهُ اللَّهُ بتأخيره وهو: هٰذا التنبيه الذي أتىٰ به هنا؛ قال: (وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِهٰذا مِنْ أَشَدِّ مَا بِالْإِنْسَانِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ) العناية بهٰذا: الإشارة إلىٰ هٰذه الثلاث التي تقدمت: (التوبة والاستغفار والأعمال الصالحة) حاجة العبد إلىٰ هٰذه شديدة جدًّا.

قال: (فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حِينِ يَبْلُغُ) ونحن نقرأ كلام شيخ الإسلام ينظر الإنسان إلىٰ الوراء، إلىٰ تاريخه منذ نشأته وفي صباه، مَنْ بلغ الستين؟! مَنْ بلغ السبعين؟! مَنْ بلغ الثمانين؟! ينظر مِن حين النشأة ويتأمل في التاريخ، يقول: (فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حِينِ يَبْلُغُ، خُصُوصًا فِي هٰذه الْأَزْمِنَةِ؛ وَنَحْوِهَا) ليس في القرن هٰذا، يتحدث عن القرن السابع، يقول: (خُصُوصًا فِي هٰذه الْأَزْمِنَةِ؛ وَنَحْوِهَا مِنْ أَزْمِنَةِ الْفَتَرَاتِ الَّتِي تُشْبِهُ الْجَاهِلِيَّةَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَنْشَأُ بَيْنَ أَهْلِ عِلْمٍ وَدِينٍ) يعني في مثل تلك الأزمنة (قَدْ يَتَلَطَّخُ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ بِعِدَّةِ أَشْيَاءَ، فَكَيْفَ بِغَيْرِ هٰذا؟!) يعني كيف برجل نشأ في قرية أو بلدة لا يوجد فيها علماء؟! ولا يوجد فيها نصحاء، والجهل فيها كثير، والضلال كثير، والانحرافات كثيرة، والأخطاء عديدة، كيف ستكون حاله؟! كيف سيكون أمره؟! سيتلطخ بأشياء، ليس معنىٰ أنه تلطَّخ بأشياء أن انتهىٰ تاريخه وانهدم، لا، ما دامت الروح في الجسد أمامك فرصة، لو لم يبق علىٰ عمر الإنسان إلا أيام قلائل وكتبَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له توبة جبَّت ما قبلها ولو كان ستين سنة، ولو كان سبعين سنة «أحسن فيما بقي يُغفر لك ما قد مضىٰ»، بعض الناس فعلًا مثل ما أشار شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ينشأ في أجواء وفي أوساط انحرافات وخمور ومسكرات، فساد، انحراف، إلىٰ آخره، ثم يظن أن مثله انتهىٰ أمره ولا مجال، أبدًا، ما دامت الرُّوح موجودة؛ باب التوبة مفتوح أمامك ما لم تُغرغر، إذا غرغر وعاين الموت لا تُقبل التوبة وقتئذ، وإذا طلعت الشمس من مغربها لا تقبل التوبة حينئذٍ، والباقي المجال مفتوح، يتوب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومن تاب تاب الله عليه، قال: (خُصُوصًا فِي هٰذه الْأَزْمِنَةِ؛ وَنَحْوِهَا مِنْ أَزْمِنَةِ الْفَتَرَاتِ الَّتِي تُشْبِهُ الْجَاهِلِيَّةَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَنْشَأُ بَيْنَ أَهْلِ عِلْمٍ وَدِينٍ) يعني في تلك الفترات (قَدْ يَتَلَطَّخُ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ بِعِدَّةِ أَشْيَاءَ، فَكَيْفَ بِغَيْرِ هٰذا؟!) يعني كيف بإنسان نشأ أصلًا في مجتمع وبيئة لا علم فيها ولا دين؟!.

قال: (وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ

الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ ؟ قَالَ: فَمَنْ ؟») وجُحر الضب يتميز عن غيره من جحور الزواحف أنه متلوي، بمعنىٰ لو فعلوا أشياء ملتوية أشد الالتواء سيوجد في المسلمين من يقلّدهم فيها، وانظروا حال كثير من المبتلين بضعف الإيمان كيف قلدوا الكفار في قصة الشعر؟! كيف قلدوا الكفار في اللباس.؟! كيف قلدوا الكفار بصبغ الوجه؟! يصبغ الوجه بألوان إذا رأيته لا تظنه من بني آدم، يعني يتحول إلىٰ حال سيئة جدًّا، لا لشيء إلا لأنه رأىٰ بعض الكفار فعلوا ذلك فيريد محاكاة الكفار وتقليدهم، قصّات شعر يعني بعضها -بدون مبالغة- عند ذوي الفطرة إذا رأوها تسبب استفراغ ـ قذرة جدا ـ وتجد في المسلمين من يقلد ويُحاكي تلك الأعمال القذرة التي تمُجُّها العقول السليمة والفِطر المستقيمة فضلًا عن الديانة الصحيحة.

فإذن هٰذه الأشياء موجودة «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، شيخ الإسلام هنا ينبه حتىٰ لو حصل من بعض الشباب أو من بعض الناشئة في فترة من فترات حياته، فتلطخ بهٰذه الأشياء، ليس معنىٰ ذلك أن الباب أُغلق وانتهىٰ، باب التوبة مفتوح، شيخ الإسلام أورد هٰذا الحديث يقصِد التنبيه علىٰ هٰذا المعنىٰ يعني ستوجد الأخطاء، سيوجد من يتشبه، سيوجد من كذا ،لكن باب التوبة مفتوح فبادر وسارع إلىٰ التوبة، إلىٰ الحسنات؛ أكثر منها، أكثر من الاستغفار.

قال: (وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ ؟ قَالَ: فَمَنْ ؟»، هٰذَا خَبَرٌ تَصْدِيقُهُ فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩] وَلِهٰذَا شَوَاهِدُ فِي الصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ) في الأحاديث الصحيحة والأحاديث الحسنة شواهد كثيرة علىٰ هٰذا المعنىٰ.

هٰذا التلطخ ليس فقط في الفسقة والمبتلين بالفجور.

يقول: (وَهٰذَا أَمْرٌ قَدْ يَسْرِي فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الدِّينِ مِنَ الْخَاصَّةِ ؛ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ مِنْهُمُ ابْنُ عيينة ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ الْيَهُودِ قَدْ أُبْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الْعِلْمِ، وَكَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ النَّصَارَىٰ قَدْ أُبْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الدِّينِ) فتجد مثلًا أناس عندهم علم ولا يعملون، وتجد أناس أيضًا

عندهم عبادات ولكن فيهم شبه بالنصارىٰ في طرائقهم، في أعمالهم، ولهٰذا جاء في الأثر ويروىٰ مرفوعا قريبا من هٰذا المعنىٰ: «من فسد من علماءنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارىٰ».

قال:(كَمَا يُبْصِرُ ذَلِكَ مَنْ فَهِمَ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ ثُمَّ نَزَّلَهُ عَلَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ)

يعني هٰذا المعنىٰ الذي يشير إليه شيخ الإسلام لا يظهر لكل أحد، وإنما يظهر لشخص عرف دين الإسلام واتضح له، ثم نظر إلىٰ واقع الناس يجد هٰذه المعاني موجودةً، مثل ما أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، ثم استمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ما يتعلق بهٰذا من معنىٰ وتتمة.

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم؛ بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، أن ينفعنا بهٰذه الوصية، وأن يجعلنا ممن يكون هٰذا العلم حجة لهم لا عليهم.

اللّٰهمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا، اللّٰهمَّ أصلح لنا ديننا الذي هو عِصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا.

المجلس الثالث

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ، وَكَانَ مَيْتًا فَأَحْيَاهُ اللهُ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، لَا بُدَّ أَنْ يُلَاحِظَ أَحْوَالَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَطَرِيقَ الْأُمَّتَيْنِ: الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَالضَّالِّينَ؛ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، فَيَرَىٰ أَنْ قَدِ ابْتُلِيَ بِبَعْضِ ذَلِكَ.

فَأَنْفَعُ مَا لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ: الْعِلْمُ بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوسَ مِنْ هٰذِهِ الْوَرْطَاتِ؛ وَهُوَ إِتْبَاعُ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ. وَالْحَسَنَاتُ مَا نَدَبَ اللهُ إِلَيْهِ عَلَىٰ لِسَانِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ: مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ.

وَمِمَّا يُزِيلُ مُوجَبَ الذُّنُوبِ: الْمَصَائِبُ الْمُكَفِّرَةُ، وَهِيَ كُلُّ مَا يُؤْلِمُ مِنْ: هَمٍّ، أَوْ حُزْنٍ، أَوْ أَذًىٰ، فِي مَالٍ، أَوْ عِرْضٍ، أَوْ جَسَدٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، لَكِنْ لَيْسَ هٰذا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ .

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد؛ سبق أن بين شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الأمور التي تُمحِّصُ العبد وتُخلِّصه بإذن الله تبارك وتعالىٰ مما اقترفَه من ذنوب، فتكون مانعًا للعقوبة المترتِّبة علىٰ الذَّنب، فذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الذنوب يزول مُوجَبها بأشياء؛فذكر أمورًا ثلاثة، وهي: التوبة، والاستغفار، والأعمال الصالحة المكفِّرة.

ثم بعد ذلكم أضاف أمرًا رابعًا يأتي ذكره، وهو: المصائب التي يُصاب بها العبد.

وعرفنا أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أخَّر هٰذا الأمر الرابع قصْدًا، لأنه ليس مما للعبد فيه كسب أو عمل، وإنما هو شيءٌ يُبتلىٰ به فيحتسبه المبتلىٰ عند الله تبارك وتعالىٰ كفَّارة ورفعة، والمصائب كفارات؛ ولأجل ذلكم أخَّره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وبيَّن في هٰذه الأثناء حاجةَ العبد الشديدة إلىٰ العناية بهٰذه الأمور الثلاث: التَّوبة، والاستغفار، والأعمال الصالحة، خاصَّةً عندما ينشأ الإنسان في بيئة ومجتمع يقل فيه العلم والدعوة، ويقلُّ فيه الصلاح وأهل الصلاح، فإذا نشأ الإنسان في مثل هٰذه المجتمعات سيكون مبتلَىٰ بشيء قليلٍ أو كثير من هٰذه المعاصي والآثام التي تترتَّب عليها عقوبات، عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو بحاجة إلىٰ أن يعرف الأمور التي تُذهِبُ آثار تلك الذنوب، بأن تمحو الذنب، تمحو الخطيئة، تُذهب السيئة، بحاجة إلىٰ أن يعرف ذلك، ولاسيما عند ما ينظر إلىٰ حياته

وتاريخه، ويجد أنه مليء بأشاء وأشياء كثيرة، ثم يذكر أنه سيلقىٰ الله، وأن الله يعاقب علىٰ هٰذه الأعمال.

إذن هو يحتاج فعلًا حاجة شديدة إلىٰ هٰذه الأمور الثلاث: التَّوبة، والاستغفار، والإكثار من الأعمال الصَّالحة، والله جل شأنه يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

لمَّا أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ إلىٰ الزَّمان الذي تغلب فيه الجاهلية، أو تكثر فيه الجاهلية، استدلَّ علىٰ وجود أنواع من الجاهلية في أوساط الناس بحديث النبي عليه الصلاة والسلام: «لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم» والحديث ولئنْ كان خرج مخرج الإخبار إلا أنه في الحقيقة تحذير للأمة من اتباع سَنَن اليهود والنصارىٰ، وتحذيرٌ من ذلك، فأخبر عليه الصلاة والسلام محذرًا كأنه يقول لأمته: تيقظوا وتنبهوا واحذروا من هٰذا الأمر، فإنَّه سيوجد من يتَّبع سنن من كان قبلنا، ثم ينبِّه علىٰ أمر مهم للغاية ألا وهو: متىٰ يعرف الإنسان فعلًا وجود الأشياء من الجاهلية في الناس؟ أو فيه هو نفسه؟ ولاسيما إذا كان فاقدًا للعلم، كيف يعرف أن هٰذه الأشياء التي فيه أو في الآخرين هي من الجاهلية؟ فأصبَح المقام يحتاج إلىٰ علم وبصيرة بدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأيضًا يحتاجُ في الوقت نفسه: أن ينظر إلىٰ واقعه وواقع الناس في ضوء ما تعلَّمه من دين الله تبارك وتعالىٰ.

وأذكرُ قصةً طريفة توضِّح هٰذا المعنىٰ، ألا وهي: أن شابا حصل لي به اتصال في وقت سابق ومحادثة، كان علىٰ ارتباطٍ بطائفة من المتصوفة، وحدثني عنهم باعتباره واحدًا منهم، وقال لي: أنا منذ نشأت وأنا معهم، وأمشي معهم، وعلىٰ طريقتهم، ما رأيتُ فيهم بدعة إطلاقًا، يقول: ما رأيت بدعة إطلاقًا، يقول: اسألني أنا، فقلت له: أريد أن أرشِّح لك كتابًا تقرأه، ولا بأس أن نقرأه سويا -أنا وأنت- وجلست معه جلسات في هٰذا المسجد، نقرأ من كتاب «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، قرأنا حتىٰ بلغنا ثُلُث الكتاب، ونحن نتعلم ونقرأ بأناة ونستفيد، وما يشكل عليه أوضحه له، لمَّا جاوزنا ثُلُث الكتاب قال: أريد أن أحدثك بشيء، قلت: تفضل، قال: يا أخي هؤلاء عندهم بدع كثيرة، وعندهم ضلالات كثيرة.

فالقضية هي، ما هي؟ القضية عندما يكون فعلًا ما درس وما تعلم ولا تفقه، ولا عرف، نعم سيقول لا توجد البدع، لكن إذا قرأ الآيات، وقرأ الأحاديث، وقرأ النصوص، ووقف علىٰ الأدلة، حينئذٍ يتنبه، وهٰذا المعنىٰ هو الذي ينبه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: أن العبد يحتاج في هٰذا المقام أولًا أن

يتبصَّر هو في الدين، وأن يتعلم، يقرأ الآيات والأحاديث ويعرف معانيها ودلالاتها، ثم في ضوء ذلك ينظر إلىٰ واقعِه هو، وأيضًا واقع الناس، ثم بعد ذلك يعرف؛ هل ثمَّةَ ضلالات؟ هل ثمة جاهلية؟ هل ثمة مخالفات لدين الله تبارك وتعالىٰ؟

تأمَّل كلام شيخ الإسلام، يقول: (وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ، وَكَانَ مَيْتًا فَأَحْيَاهُ اللهُ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا) أي العلم (يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، لَا بُدَّ أَنْ يُلَاحِظَ أَحْوَالَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَطَرِيقَ الْأُمَّتَيْنِ: الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَالضَّالِّينَ، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، فَيَرَىٰ أَنْ قَدْ أُبْتُلِيَ بِبَعْضِ ذَلِكَ) (فَيَرَىٰ أَنْ قَدِ ابْتُلِيَ) أي أنه قد ابتُلي ببعض ذلك، لكن متىٰ يرىٰ ذلك؟ إذا تعلم هو، أما إذا بقي جاهلًا غير متعلمٍ ولا متفقهٍ في دين الله؛ تجده ممتلئ بالبدع، ويقول: ما أعرف البدعة في حياتي أبدًا، ولا وقعت في بدعة أبدًا، وإذا سمع خطيبًا يحدث أو واعظًا يحدِّث عن بدعة يسمع الكلام الذي يُوعظ به وهو في نفسه يقول: هٰذا لا يعنيني، لأنني لستُ صاحب بدعة!!! والسبب في ذلك أنه لم يتعلم، لم يتبصر، لم يتفقه في كتاب الله وفي سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

إذن ما هو المخلص؟ يقول رَحِمَهُ اللهُ: (فَأَنْفَعُ مَا لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ: الْعِلْمُ بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوسَ مِنْ هٰذه الْوَرَطَاتِ) ورطات ماذا؟ قال -قبل قليل-: أن الإنسان إذا نشأ في مجتمعات يقل فيها العلم، وتكثر الجاهلية، لابد أن يبتلىٰ بشيء من المعاصي، بشيء من الذنوب، بشيء من الخلل والنقص، بشيء من التفريط بالواجبات، لابد أن يقع في ذلك، لابد أن يتورَّط، فقال: (فَأَنْفَعُ مَا لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ: الْعِلْمُ بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوسَ مِنْ هٰذه الْوَرَطَاتِ) مثل ما يفعل أرباب الدنيا، كلمة «ورْطة» هٰذه كلمة شائعة جدًّا، يعني كثيرًا ما يتحدّث عنها الناس، يقولون: «فلان تورَّط، أنا متورِّط، تورَّطنا» هٰذه كثيرة، دارجة، يمكن لا يمر يوم إلا وتسمعها، لكن عامة حديث الناس عنها في أمور الدنيا، يقول: «أنا ورطان ورطة» وتجده لما يتحدث عنها كلها في أمر دنيوي؛ لكن ابن تيمية وأهل النُّبل وأهل الفضل، الورطة عندهم: هي: الورطة في الدين، مثل ما جاء في «صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ»، عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: (إنَّ من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها: سفك الدم الحرام بغير حِلِّه)؛ (ورطات الأمور): ذاك الذي نشأ في جاهلية، وبين أناس لا يُصلون، بين أناس يقعون في المعاصي، كبائر الآثام، ثم يجد أنه ترعرع في هٰذه الورطة، متورِّط معهم في هٰذه الأشياء، مضىٰ عليه رِدحًا من حياته لا يصلي، رِدْحا من حياته يعاقر

الخمور، النساء، المحرّمات، الآثام، إلىٰ كذا، وهو بين عشية وضحاها سيفارق هٰـذه الحيـاة ويلقـىٰ الله ﷻ بأعماله هٰذه كلّها، وسيحاسبه رب العالمين عليها.

إذن هو في ورطة، في ورطة عظيمة جدًّا، كيف يتخلص من هٰذه الورطة التي هو فيها؟ ولا يليق بعاقلٍ أن يبقىٰ في ورطة إلىٰ أن يلقىٰ الله.

العاقل: هو الذي يسعىٰ إلىٰ تخليص نفسه من الورطة التي هو فيها، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَـأَنْفَعُ مَـا لِلْخَاصَّـةِ وَالْعَامَّةِ: الْعِلْمُ بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوسَ مِنْ هٰذه الْوَرْطَاتِ) ما الذي يخلص النفوس من هٰـذه الورطـات؟ مـر معنا: التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، هٰذا الذي يخلص، ثلاثة أمور ، أي ذنـب وقـع فيـه العبـد يتوب إلىٰ الله، وباب التوبة مفتوح، حتىٰ لو أمضىٰ في الذنب ستين سنة؛ باب التوبة مفتوح، يتوب إلـىٰ الله توبة صادقة؛ في لحظة واحدة ستين سنة كلها تُمحىٰ، هٰذا فضل الله ﷻ.

إذن التوبة الصادقة تُخلِّصه من الورطة، الاستغفار، يلهج بالاستغفار ويكثر من الاستغفار، هٰـذا أيضًـا مما يُعينه علىٰ الخلاص من هٰذه الورطة، أيضًا الإكثار مـن الحسـنات: صـلاة، وصـيام، وصـدقة، وبـر، وصلة، إلىٰ غير ذلك، هٰذه أيضًـا ممـا تسـاعده علـىٰ الخـلاص مـن هٰـذه الورطـة ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، «وأتبع السيئة الحسنة تمحها».

قال: (وَهُوَ إِتْبَاعُ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ، وَالْحَسَـنَاتُ مَـا نَـدَبَ اللهُ إِلَيْـهِ عَلَـىٰ لِسَـانِ خَـاتَمِ النَّبِيِّـينَ: مِـنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ) فيحرص العبد علـىٰ هٰـذه الأعمـال التي بُعـث بهـا النبـي عليـه الصـلاة والسلام من أعمال صالحات: قولية أو فعلية، أو أخلاق فاضلات، أو صـفات، أو نحـو ذلـك، يحـرص علىٰ ذلكم أشدَّ الحرص ليكون بذلكم خلاصه من تلك الورطات.

يضيفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمرًا رابعًا يزيل موجَب الذنوب، وهو أيضًا يقع في الدنيا، وهو: المصائب المكفرة، قـال: (وَمِمَّا يُزِيلُ مُوجَبَ الذُّنُوبِ: الْمَصَائِبُ الْمُكَفِّرَةُ) ما هي المصائب؟ قال: (وَهِيَ كُلُّ مَا يُؤْلِمُ مِنْ: هَـمٍّ، أَوْ حُزْنٍ، أَوْ أَذًىٰ، فِي مَالٍ، أَوْ عِرْضٍ، أَوْ جَسَدٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ) كل هٰذه الأشياء التي يصـاب بهـا العبـد، كلهـا مكفِّرة، والنبي عليه الصلاة والسلام لما عاد مريضًا قال له: «طهورٌ إن شاء الله» أي مطهـرة لـك، مكفـرة، فما يصاب به العبد من هم، أو حزن، أو أذىٰ، حتىٰ الشوكة يُشاكها، كفر الله بهـا مـن خطايـاه، كمـا ثبـت بذلكم الحديث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وينبغي علىٰ العبد أن يحتسب ذلك، كل ما يصاب به من أي مصيبة، أيًّا كانت في بدنه، في صحته، في ماله، في تجارته، في ولده، والله يقول: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٥٥] فهٰذه الأنواع من الابتلاءات التي لا يخلو الإنسان منها، يحتسبها عند الله تبارك وتعالىٰ كفارة لذنوبه.

قال: (لَكِنْ لَيْسَ هٰذا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ) يعني هٰذه المصائب التي يُصاب بها، من مرض، من فقر، من حاجة، من أذىٰ؛ أحد يتعرّض له بأذىٰ أو نحو ذلك، ليس هٰذا من كسْب العبد. (لكن ليس هٰذا من فعل العبد) يعني ليس هٰذا أمر باشره العبد، مثل الأمور السابقة: التوبة، والاستغفار، والأعمال الصالحات، ولهٰذا أخَّر ذكر هٰذا الأمر الرابع إلىٰ هٰذا الموضع.

هٰذه الأربعة أشياء: (التوبة والاستغفار والحسنات والمصائب المكفرة)، هٰذه في الحياة الدنيا تمحص الإنسان، وهو في الحياة الدنيا تمحِّصه من ذنوبه، وفضل الله ﷻ عظيم في تمحيص أصحاب الذنوب وأرباب الخطايا.

فهناك أيضًا ممحصات أخرىٰ بعد ذلك، إن لم تفي هٰذه الأربع بتمحيصه فهناك ثلاث ممحصات في القبر، هناك ثلاث ممحصات للإنسان من ذنوبه وخطاياه تكون له بعد وفاته:

الأمر الأول: **صلاة الجنازة**، واستغفار المسلمين له، ودعاءهم له بالمغفرة والرحمة والنجاة من النار، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام في الصلاة علىٰ الجنازة يقول: «اللّٰهمَّ اغفر له، وارحمه، وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، وأوسع مُدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقِّه من الذنوب والخطايا كما ينقىٰ الثوب الأبيض من الدنس» هٰذه دعوات تنفع المؤمن، تنفع الميت، المسلم تنفعه هٰذه الدعوات، هٰذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: **ما يكون في القبر من فتنة القبر**، وروعة القبر، والفتَّانان، يأتيه ملكان سود الوجوه زرق العيون، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير، فهٰذه أيضًا مما يكون فيه تمحيص للعبد.

الأمر الثالث: ما يُهدىٰ للميت من ثواب أعمال، مثل: أن يحج عنه، أن يتصدق عنه، ونحو ذلك، هٰذه أيضا تُفيد الميت.

وهٰذه أمور ثلاثة تكون في القبر، إضافة إلىٰ الأمور الأربعة السابقة، أصبحت سبعة أمور، إن لم تفِ

هٰذه، أيضًا هناك ممحصات يوم القيامة، يوم يقف بين يدي الله ﷻ:

الأمر الأول: أهوال يوم القيامة؛ وما يكون في ذلك اليوم من أهوال وشدائد وفزع، أيضًا هٰذه تمحص بإذن الله تبارك وتعالىٰ.

الأمر الثاني: شدة الموقف، والناس يقفون في ذلك اليوم، يومًا مقداره خمسين ألف سنة، فهٰذا اليوم فيه تمحيص لأصحاب الذنوب وأصحاب الخطايا.

الأمر الثالث: شفاعة الشفعاء، وعلىٰ رأسهم سيد الأولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه، اللّٰهمَّ أكرمنا أجمعين بشفاعته يا ذا الجلال والإكرام، سيد الشفعاء سيد الأولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه.

الأمر الرابع: عفو الله ﷻ، ولما يشفع الشفعاء، جاء في الحديث أن الله ﷻ يقول: «بقيت شفاعة أرحم الراحمين» ومعنىٰ «شفاعة أرحم الراحمين» -والحديث في البخاري- أي: إرادته ﷻ من نفسه أن يرحمهم ولا يعذّبهم بعد الشفاعات التي تكون، يقول جل شأنه: «بقيت شفاعة أرحم الراحمين» أي إرادته ﷻ من نفسه جل شأنه أن لا يعذبهم.

إذن هٰذه الآن نحو عشرة أمور أو أحد عشر أمرًا كلها ممحصات؛ **لكن الذي ينبغي أن يعتني به العبد فعلًا**، ما كان من كسبه ومن عمله، وهي الأمور الثلاث التي بدأ بها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

- فيحرص علىٰ التوبة النصوح.
- ويحرص علىٰ الإكثار من الاستغفار.
- ويحرص علىٰ الإكثار من الحسنات، ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود:١١٤].

أيضًا هنا أروي **قصة طريفة ومفيدة في هٰذا الباب**، الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لقي رجلًا عنده شيء من التفريط، فأراد أن يعظه، فقال له: كم تبلغ من العمر؟ قال: ستين سنة، قال: أما علمت أنك في طريق وقد أوشكت أن تبلغ نهايته؟، «أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين».

قال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال له الحسن: أو تعرف تفسيره؟ يعني هٰذا القول الذي قلته هل تعرف معناه؟ «إنا لله وإنا إليه راجعون».

قال: وما تفسيره؟ وهٰذا ينبه إلىٰ أن الكثير من الناس والعوام يأتون بأذكار مشروعة؛ لكن إن سألته عن معناها لا يدري، إن سألته وقلت له: ما معنىٰ «سبحان الله»؟ يقول: كلمة طيبة، لكن معناها لا يدري، أو «إنا لله وإنا إليه راجعون» أيضًا لا يدري ما معناها، فقال له: أوَ تعلم تفسيره؟ تنبيهًا منه لأهمية معرفة معنىٰ هٰذه الأذكار الشرعية.

وفي هٰذا يقول ابن القيم: أن الأذكار المشروعة إذا لم تُعقل معانيها تكون عديمة الأثر أو ضعيفة الأثر.

فقال الرجل: وما تفسيره؟ قال: «إنا لله» أي: أنا لله عبد «وإنا إليه راجعون» أي: أنا إليه راجع، وانظر كيف أن هٰذه الكلمة تسلية للمصاب، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة] تكون تسلية للمصاب عندما يعقل معناها، «إنا لله» يعني: هٰذه النفس العزيزة إليَّ التي ذهبت هي لله، ولله ما أخذ وله ما أعطىٰ، «وإنا إليه راجعون»: كلنا سنرجع إلىٰ الله ﷻ، ليس هٰذا فقط فيسلو ويعلم أن الجميع لله، يقضي ما يشاء، يحكم بما يريد، له ما أخذ، وله ما أعطىٰ ﷻ، والمرجع إلىٰ الله، كلنا راجعون إلىٰ الله ﷻ.

فقال: فإذا علمت أنك لله عبد، وأنك إليه راجع، فاعلم أنه سائلك.

وإذا علمت أنه سائلك فأعدَّ للمسألة جوابًا.

قال الرجل: ما الحيلة؟ أدرك الآن حقيقة الأمر وتنبه وتيقظ، فأراد المخرج.

قال: الحيلة يسيرة، قال: وما هي؟ قال: (**أحسِن فيما بقي يُغفر لك ما قد مضىٰ**)؛ يعني إذا كان الذي قد مضىٰ ستين، سبعين، ثمانين سنة، أحسن في الذي بقي من حياتك، وانظر كرم الرب ﷻ.

(أحسن فيما بقي يغفر لك ما قد مضىٰ، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت فيما بقي وفيما مضىٰ).

تصوَّروا الآن أمرًا يُقرب لنا هٰذا المعنىٰ، شخص مفرِّط، بلغ ستين، سبعين سنة وهو لا يزال مفرطا، ثم جاءه واعظ ومذكِّر: تُبْ إلىٰ الله، أحسن فيما بقي، ولكنه أصرّ أن يبقىٰ علىٰ تفريطه، وأجَّل الإحسان فيما بقي إلىٰ ما بعد سنة، مثل ما يحصل من كثير من الناس يؤجلون التوبة، فأجَّلها مثلا سنة، شهرًا إلىٰ آخر ذلك، ثم بعد أيام خمسة أو ستة أو سبعة توفي، أيُّ خسارة هٰذه؟! والإنسان لا يدري، (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء).

فقد يصادف الإنسان موعظة تدخل قلبه، لا ينبغي له يا إخوان أن يفوِّتها علىٰ نفسه؛ بل عليه أن

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

يتوب، وما يدريه لعل هٰذه التوبة التي يكرمه الله ﷻ بها لا يبقىٰ له من الحياة بعدها إلا أيام قلائل فيكـون أحسن فيما بقي وغُفر له ما قد مضىٰ، بينما لو أصرَّ علىٰ ذنبه يبقىٰ في الـذنب خمسـة أيـام، ويؤخـذ بهٰـذه الخمسة أيام وبالسنوات الطِّوال، كلها خسارة عظيمة جدًّا، فالبدار البدار، المسارعة المسارعة، لا يؤجـل الإنسان ولا يؤخر، وكم من إنسانٍ أجِّـل وداهمـه المـوت، وباغتـه الأجـل قبـل أن يتـوب إلـىٰ الله ﷻ، ويرجع إليه ﷻ.

فإذن مسارعة الإنسان إلىٰ اغتنام هٰذه الأمور الثلاثة التي أشار إليها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أمرٌ فعلًا يحتاج إليه العبد حاجة ماسَّة، التوبة النَّصوح، وملازمة الاستغفار، والإكثار من الحسنات.

ونسأل الله لنا أجمعين العون علىٰ ذلك، وعلىٰ كل خير بمنه وكرمه وجوده وإنعامه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

فَلَمَّا قَضَىٰ بِهاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ حَقَّ اللهِ: مِنْ عَمَلِ الصَّالِحِ، وَإِصْلَاحِ الْفَاسِدِ، قَالَ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» وَهُوَ حَقُّ النَّاسِ.

وَجِمَاعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ مَعَ النَّاسِ:

- أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك: بِالسَّلَامِ، وَالْإِكْرَامِ، وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالزِّيَارَةِ لَهُ.
- وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَك: مِنَ التَّعْلِيمِ، وَالْمَنْفَعَةِ، وَالْمَالِ.
- وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَك: فِي دَمٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ عِرْضٍ. وَبَعْضُ هٰذا وَاجِبٌ، وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبٌّ.

وَأَمَّا الْخُلُقُ الْعَظِيمُ الَّذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ فَهُوَ الدِّينُ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مُطْلَقًا، هَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ. وَهُوَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» وَحَقِيقَتُهُ **الْمُبَادَرَةُ إِلَى امْتِثَالِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِطِيبِ نَفْسٍ وَانْشِرَاحِ صَدْرٍ.**

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلَمَّا قَضَىٰ بِهاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ حَقَّ اللهِ: مِنْ عَمَلِ الصَّالِحِ، وَإِصْلَاحِ الْفَاسِدِ) لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما وصّىٰ معاذًا قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها» قوله: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها» يتناول جانبين:

الأول: عمل الصالح في قوله: «اتق الله حيثما كنت» .

والجانب الثاني: إصلاح الفاسد بقوله: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها».

فالعبد يحتاج إلىٰ هٰذا وهٰذا، يحتاج إلىٰ العمل الصالح، ويحتاج أيضًا أن يصلح الفاسد، يرقع ما يبدر ويقع من أخطاء، وعرفنا أن الخطأ حتم، وأن كل بني آدم خطَّاء، وأنه لابد من الذنب، فيحتاج إلىٰ هذين الأمرين: العمل الصّالح، وإصلاح الفاسد، العمل الصالح الإشارة إليه بقوله: «اتق الله حيثما كنت» وإصلاح الفاسد الإشارة إليه بقوله: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها».

قال: (فَلَمَّا قَضَىٰ بِهاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ حَقَّ اللهِ: مِنْ عَمَلِ الصَّالِحِ، وَإِصْلَاحِ الْفَاسِدِ، قَالَ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» وَهُوَ حَقُّ النَّاسِ) وقد أشار في بداية حديثه لوجه كونها جامعة، أنها اشتملت علىٰ حقين: حق الله، وحق الناس، فحق الناس لخَّصه عليه الصلاة والسلام في هٰذه الوصية بقوله: « وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » ما هو الخلق الحسن؟ وما جماع الخلق الحسن؟ عرفه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بتعريفٍ

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

عظيم، وتعريف جامع، والموفَّق مِنْ عباد الله مَنْ يوفق للقيام بالخُلق الحسن علىٰ هٰذا الوصف الذي عرفه وذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ؛ قال: (وَجِمَاعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ مَعَ النَّاسِ: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ: بِالسَّلَامِ، وَالْإِكْرَامِ، وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالزِّيَارَةِ لَهُ) هٰذا جماع الخلق الحسن (وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ مِنَ: التَّعْلِيمِ، وَالْمَنْفَعَةِ، وَالْمَالِ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ: فِي دَمٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ عِرْضٍ) هٰذا جماع الخلق الحسن، هناك أخلاق تدرُج بين الناس لكنها تبادل مصالح ومنافع، يعني: يعاملني بمعاملة جميلة فأنا أعامله بالمثل؛ لكن الخلق الحسن الذي يظهر فعلًا في صاحبه، وحِرصه علىٰ التقرُّب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، ونيل الثواب العظيم الذي أعدَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأهل الأخلاق العالية الرفيعة، هو الذي يكون بهٰذا الوصف، ليس الذي يكون علىٰ سبيل المقابلة، يصِلوني وأصلهم! يعطوني وأعطيهم! يكافئوني وأكافئهم!

الخلق الحسن يظهر ويتمحص في مثل هٰذا الوضع، في مثل هٰذه الصُّورة التي يتحدث عنها شيخ الإسلام، فشيخ الإسلام لمَّا عرَّف الخلق الحسن عرَّفه بِمَحَكٍّ يتميز ويظهر ويبرُز فيه الخلق الحسن فعلًا، لا أنَّ الخلق الحسن منحصر في هٰذا، ولكن هٰذا محكٌّ يميز فعلًا ويجلِّي فعلًا أن صاحب هٰذه الأعمال فعلًا علىٰ خلقٍ كبير، وخلق عالي ورفيع جدًّا.

قال: (وَجِمَاعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ مَعَ النَّاسِ: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ بِالسَّلَامِ، وَالْإِكْرَامِ، وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالزِّيَارَةِ لَهُ) هٰذه أمورٌ تحتاج إلىٰ قلبٍ كبير، وتحتاج قبل ذلك إلىٰ عون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلَّا مَنْ الذي يسمو إلىٰ هٰذا المستوىٰ العالي؟! إلَّا من يوفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

مرَّ معنا قبل أيام كلامًا عظيمًا لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العفو، كلام مؤثر جدًّا، جميع الحاضرين تأثرنا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان كلامًا مؤثرًا، فبعدها بأيام أحد الأفاضل من الحاضرين يحدِّث بعفوية عن نفسه، وعن واقع حاله، قال: (منذ سمعت ذلك الكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وأنا نفسي تريد هٰذه الأعمال، لكن يقول: إلىٰ الآن ما استطعت) يعني اقتنع أن هٰذه أخلاق فاضلة، عالية، كبيرة جدًّا، لكن يقول: (ما استطعت) ونرجوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكون هٰذا الأخ الكريم قد استطاع، وأن يعيننا جميعًا علىٰ ذلك، وأن يوفقنا لكل خير.

فمثل هٰذه الأمور هي محكٌّ فعلًا، يظهر فيها خُلُق الإنسان، يعني فيه كثير من الناس تجد تعامله جميل ورائع جدًّا؛ لكن إذا جاء إلىٰ هٰذا المحك، إذا وصل إلىٰ هٰذا المحك، ينسىٰ الأخلاق، وينسىٰ

التعامل الجيد، إذا أساء إليه جاره أو أساء إليه أحد أقرباءه بإساءة، أخلاقه تلك الجميلة اللطيفة تتحول إلىٰ شراسة، وتتحول إلىٰ فظاظة وإلىٰ غلظة. إذًا هنا محك يميز فعلًا صاحب الأخلاق.

أيضًا لمَّا يكون شخص له عند الآخرين مصلحة وتجده بأخلاق عالية جدًّا، ومستوىٰ من الأخلاق، فإذا وصل إلىٰ هٰذا المحك ظهرت معادن الناس، هنا تظهر المعادن وحقيقة الإنسان في خُلقه، ولهٰذا جاء شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما يُعبر في الصميم؛ وقال: (وَجِماعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ مَعَ النَّاسِ:

أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك: بِالسَّلَامِ، وَالْإِكْرَامِ، وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالزِّيَارَةِ لَهُ.

وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَك: مِنَ التَّعْلِيمِ، وَالْمَنْفَعَةِ، وَالْمَالِ.

وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَك: فِي دَمٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ عِرْضٍ) هنا يقف الإنسان وقفة جادة مع نفسه في حياته، يعني قد يكون مثلًا ابتُلي في حياته بمعاملة ليست بذاك من والده أو من والدته أو من خاله أو من خالته أو عمه أو عمته أو أستاذه أو معلمه، فما هو الخلق الحسن؟

هنا يبرز حقيقة الخلق الحسن في تعامل الإنسان، كثير من الناس في هٰذا المحك يسقط تمامًا، يقول: هؤلاء منذ كذا وهم يفعلون ولا يستحقون مني أي خلق، ولا يستحقون أي معاملة إلىٰ آخر ذلك، فهنا حقيقةً يتميز الخلق الحسن.

خذوا صورة تقرِّب الموضوع، شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي يحدث عن هٰذا الكلام، وحياته عَجَبٌ في تطبيق هٰذه الأخلاق العالية الرفيعة، يقول ابن القيم: لما مات أحد ألدّاء وخصوم شيخ الإسلام الأعداء، جاء أحد طلاب ابن تيمية فرحًا إلىٰ شيخ الإسلام يقول له: «أبشرك فلان مات» يسوق بشارة لشيخ الإسلام أن ألد خصومه وأعدائه مات، يقول ابن القيم: فغضب ونهر الرجل من هٰذا الكلام، وقام من فوره، وذهب إلىٰ بيت أولاده، إلىٰ بيت أهله، وعزَّاهم، وقال: «أنا لكم مكانه، ولا تحتاجون شيئا أو مساعدة إلا وتطلبون مني» أنا مكانه، فأكبروا فيه هٰذا الخلق، وتأثروا تأثرًا عظيمًا بهٰذا الخلق، حتىٰ قال بعض من عاشر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «ليتنا لمن نحب مثل شيخ الإسلام مع خصومه» ليتنا مع أحبائنا وإخواننا مثل شيخ الإسلام مع خصومه.

ولما خرج من السجن، وكان بوشاية من خصومه من أهل البدع من قضاة ونحوه، دعاه السلطان وقد حصل بينه وبين بعض القضاة شيء، فأراد أن يستغل إيذاءهم لشيخ الإسلام وتحريضهم علىٰ قتله،

فدعى ابن تيمية وقال له: «إنهم فعلوا كذا وفعلوا كذا، وأرادوا قتلك، فأريد أن تعطيني فتوى بقتلهم» فقال له شيخ الإسلام: «هؤلاء علماء البلد، هؤلاء القضاة، هؤلاء إذا قتلتهم لا تجد مثلهم» قال: «أما خطأهم في حقي فهم في حل، وأنا أحللتهم، وأحللت كل مسلم، ولا أطالب أي مسلم بشيء يتعلق بي أنا» وأخذ يعظه ويذكره في هٰذا المقام، حتىٰ قال أحد القضاة -وهو ابن مخلوف، من خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية-: «قدِرنا علىٰ ابن تيمية فحرّضنا عليه، ولما قدر علينا عفا عنا وحاجج عنا» فالخلق الحسن، الخلق الكبير يظهر في هٰذا المحك الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

لمَّا نقرأ مثل هٰذه العلوم نحتاج إلىٰ خُطوتين، نحتاج إلىٰ أمرين، قرأنا كلام عظيم، كلنا نقول: هٰذا كلام عظيم جدًّا، ولا ينبغي أن نَكِع وننهزم ونقول: نحن ما نستطيع؛ بل من الساعة، ونحن في مكان مبارك وفي درس مبارك إن شاء الله، من الساعة نُغيّر، ونحرص علىٰ مثل هٰذه المعاني العالية الرفيعة، قال عليه الصلاة والسلام: «احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله» فنطلب من الله المدد والعون أن ييسر لنا هٰذه الأخلاق العالية الرفيعة، وأن يجعلنا من أهلها، وأن نأخذ مباشرة بالأسباب.

وأذكر في بعض الدروس التي مرَّت، بعض الإخوان من كريم أخلاقهم ونبيل لطفهم؛ أنهم في الدرس ما انتظروا حتىٰ يخرجوا من المسجد، أخذوا يراسلون ويتصلون علىٰ بعض من بينهم وبينهم شيء من الخصومات وأنهوها مباشرة، كسبًا للخير، ومبادرة إلىٰ الخير ومسارعة له، هٰذه أخلاق عالية ورفيعة جدًّا وعظيمة، وينبغي للإنسان أن يكسب مثل هٰذه المعاني، وأن ينهض بنفسه وأن يسمو بخُلقه، حتىٰ يكون من أهل هٰذه النفوس الكبار، والأخلاق العالية، وليس بعزيز علىٰ الله أن يكون جميع هٰذا الجمع من أهل هٰذه الأخلاق الفاضلة الكريمة، والمُعين الله، والموفق الله؛ لا شريك له.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَبَعْضُ هٰذا وَاجِبٌ، وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبٌّ) يعني هٰذا الذي ذكره، والذي هو جماع الخلق، بعضه واجب، إذا كان متعلّقًا بالوالدين، حتىٰ لو كان الأب قاس أو شديد أو سيء المعاملة أو إلىٰ آخره، يعني الآن كثير من البيوتات، خاصة الذي يكون فيه تعدد، ويميل إلىٰ إحدىٰ الزوجتين أو إلىٰ أولاد الأخرىٰ أو ما إلىٰ ذلك، تنشأ مشاكل وينشأ عقوق، هنا محكّ لهؤلاء الأبناء حتىٰ تبرز الأخلاق الفاضلة والخلق العالي، متىٰ يكون الإنسان صاحب -فعلًا- خُلُق؟! إلا في مثل هٰذه الأمور التي هي محك للإنسان، أما إذا كان والده يكرمه ويحسن إليه وينعم عليه ويبر بوالده، لم يصل إلىٰ المحك في البر، وإن

كان هو بار، هكذا أكرمه الله ﷻ وصار والده عونًا له علىٰ البر؛ لكن إذا جاء الإنسان في المحك، انظر المحك مثلًا في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان:١٥] حتىٰ لو بلغ الأمر بالأبوين أنه يجاهد والديه علىٰ الشرك، الله يقول: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فكيف بالأب إذا كان دون ذلك؟ لم يبلغ هٰذا المبلغ بمجاهدة أبنائه وأولاده علىٰ الشرك بالله ﷻ.

إذن هٰذا محك يظهر فيه الابن هل هو فعلًا من أصحاب الأخلاق الحسنة أو ليس من أصحاب الأخلاق الحسنة، فيما يتعلق بالوالدين، من لهم حقوق علىٰ الإنسان واجبة يكون واجبًا، وفيما عدا ذلك تكون هٰذه الأخلاق وهٰذه المعاملات مستحبة.

قال: (وَأَمَّا الْخُلُقُ الْعَظِيمُ الَّذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ فَهُوَ الدِّينُ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مُطْلَقًا) هنا ينبّه رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ مسألة مهمة في باب التقوىٰ، وأيضًا في باب الأخلاق، التَّقوىٰ عند الإطلاق تشمل الدين كله بما في ذلكم الأخلاق الفاضلة، القيام بالأخلاق الفاضلة هو من التقوىٰ، والخلق العظيم عندما يذكر وحده يشمل الدين كله، وإذا اجتمعا في الذكر كما جاء في هٰذا الحديث أصبحت التقوىٰ فيما يتعلق بحقوق الله، وأصبحت الأخلاق الفاضلة فيما يتعلق بحقوق العباد والتعامل مع العباد.

يقول رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَمَّا الْخُلُقُ الْعَظِيمُ الَّذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ فَهُوَ: الدِّينُ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مُطْلَقًا) الآن من الأخطاء الفادحة أن بعض الناس يغتر ببعض التعاملات الجميلة من بعض الكفار ويقول عندهم: «أخلاق عالية» أين الخُلُق العالي وهم يكفرون برب العالمين؟!

أين الأخلاق إذا كان يكفر برب العالمين، يشرك بالله تبارك وتعالىٰ، أين الخُلُق؟!

وإنْ ابتسم لك، وصانعك، وعاملك بمعاملة مثلًا جميلة تعجبك، هو فاقد الأخلاق طالما أنه يكفر بمن خلقه، يشرك بمن خلقه، يعبد مع الله غيره، أين الخُلق؟!

فالخلق عند الإطلاق يشمل الدين كله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم] أي دين عظيم، الخلق العظيم هو الدين كله، بعض الناس ينحصر فهم الخلق عنده بالمعاملة، بالمعاملة الطيِّبة ينحصر، ولهٰذا ينبهر أحيانًا ببعض الكفار ببعض المعاملات ويصفهم بالأخلاق العالية، أبدًا لا توجد عندهم أخلاق

عالية طالما أنهم يكفرون بالله، هم فاقدون للخلق، كيف يخلقهم الله ويعبدون غيره؟! أين الخلق؟!

يخلقهم الله ﷻ، يمن عليهم بالنعم إلىٰ آخر ذلك وهم يكفرون بالرَّحمٰن، أين الخلق؟!

لا توجد أخلاق عندهم وهم يكفرون بالله ﷻ، هم فاقدون للخلق، فلا يغترّ المسلم ببعض المعاملات أو بعض التصرُّفات الجميلة؛ ينبهر بها، وينسىٰ حقيقة الأمر، وينسىٰ حقيقة الحال، وينسىٰ سوء الخُلق العظيم الذي يعيشه أولئك بكفرهم بالله ﷻ وعدم عبادتهم لله الواحد القهار ﷻ.

يقول ﵀: (وَأَمَّا الْخُلُقُ الْعَظِيمُ الَّذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ فَهُوَ الدِّينُ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مُطْلَقًا، هَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ. وَهُوَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ») ماذا عَنَتْ عائشة ﵂ لما قالت: «كان خلقه -أي النبي ﷺ- القرآن» بمعنىٰ أنك لا تجد أمر في القرآن أو نهي أو عبادة أو طاعة أو معاملة أو غير ذلك إلا وتجده ﷺ متَّصفًا بها، متحليًا بها، «كان خلقه القرآن» ما حقيقة هٰذا الخلق الذي كان عليه صلوات الله وسلامه عليه؟ قال: (وَحَقِيقَتُهُ: الْمُبَادَرَةُ إِلَىٰ امْتِثَالِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِطِيبِ نَفْسٍ وَانْشِرَاحِ صَدْرٍ) هٰذا الخلق، امتثال ما يحبه الله تعالىٰ بطيب نفس وانشراح صدر.

شخص يؤمر بالصلاة: «اتقِّ الله» «قُم» ثم يقوم منزعج ومتضايق، هل عنده خلق؟! أين الخلق؟! الخلق: هو عِند مَنْ يُقبل علىٰ الطاعات وعلىٰ أوامر الله ﷻ بصدر منشرح، بنفس مطمئنة، بقلب مقبل علىٰ طاعة الله ﷻ، أما إذا كان عنده شيء من التململ والتضجُّر والانزعاج ونحو ذلك، هٰذا من ضعف الأخلاق وسوء الأخلاق ورداءة الأخلاق.

فابن تيمية ﵀ ينبه هنا علىٰ المعنىٰ العالي الرفيع في بيان حقيقة الخلق.

وهو بما سبق ينبه إلىٰ أن التقوىٰ والخلق إذا اجتمعا كانت التقوىٰ فيما يتعلق بحق الله ﷻ، وحسن الخلق فيما يتعلق بالمعاملة بين الناس إذا اجتمعا في الذكر.

أما إذا انفرد كل منهما عن الآخر فإنه يشمل الدين كله، مثل الآية الكريمة، قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم] ما المراد بالخلق هنا؟ أي علىٰ دين عظيم؛ صلاة، وصيام، وعبادة، هٰذه كلها داخلة تحت قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ فالتقوىٰ وحسن الخلق إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا؛ إذا اجتمعا انفردت التقوىٰ بالحقوق التي هي لله ﷻ وحسن الخلق بالحقوق التي للعباد، وإذا انفرد كل منهما عن الآخر شمل معنىٰ الآخر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

وَأَمَّا بَيَانُ أَنَّ هٰذا كُلَّهُ فِي وَصِيَّةِ اللهِ، فَهُوَ أَنَّ اسْمَ «تَقْوَىٰ اللهِ» يَجْمَعُ فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ إِيجَابًا وَاسْتِحْبَابًا، وَمَا نَهَىٰ عَنْهُ تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا؛ وَهٰذا يَجْمَعُ: حُقُوقَ اللهِ وَحُقُوقَ الْعِبَادِ.

لَكِنْ لَمَّا كَانَ تَارَةً يُعْنَىٰ بِالتَّقْوَىٰ خَشْيَةَ الْعَذَابِ، الْمُقْتَضِيَةِ لِلانْكِفَافِ عَنِ الْمَحَارِمِ، جَاءَ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ، وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ: «تَقْوَىٰ اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ». قِيلَ: وَمَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ؟ قَالَ: الْأَجْوَفَانِ: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ».

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» فَجَعَلَ كَمَالَ الْإِيمَانِ فِي كَمَالِ حُسْنِ الْخُلُقِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِيمَانَ كُلَّهُ: تَقْوَىٰ اللهِ، وَتَفْصِيلُ أُصُولِ التَّقْوَىٰ وَفُرُوعِهَا لَا يَحْتَمِلُهُ هٰذا الْمَوْضِعُ، فَإِنَّهَا الدِّينُ كُلُّهُ.

لَكِنَّ يَنْبُوعَ الْخَيْرِ وَأَصْلَهُ: إِخْلَاصُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ: عِبَادَةً، وَاسْتِعَانَةً، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت:١٧] بِحَيْثُ يَقْطَعُ الْعَبْدُ تَعَلُّقَ قَلْبِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، انْتِفَاعًا بِهِمْ، أَوْ عَمَلًا لِأَجْلِهِمْ، وَيَجْعَلُ هِمَّتَهُ رَبَّهُ تَعَالَىٰ وَذٰلِكَ بِمُلَازَمَةِ الدُّعَاءِ لَهُ فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ مِنْ: فَاقَةٍ، وَحَاجَةٍ، وَمَخَافَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْعَمَلِ لَهُ بِكُلِّ مَحْبُوبٍ. وَمَنْ أَحْكَمَ هٰذا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ مَا يُعْقِبُهُ ذَلِكَ.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَمَّا بَيَانُ أَنَّ هٰذا كُلَّهُ فِي وَصِيَّةِ اللهِ) «هٰذا كله»: أي الذي ذُكر في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وسبق أن شيخ الإسلام لمَّا ذكر وصية النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ ختم الحديث عنها بقوله: (فَعُلِمَ أَنَّهَا جَامِعَةٌ، وَهِيَ كَذَلِكَ لِمَنْ عَقَلَهَا مَعَ أَنَّهَا تَفْسِيرُ الْوَصِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ) ثم شرح ذلك، قال: (أَمَّا بَيَانُ جَمْعِهَا) فذكر بيان كونها جامعة، ثم قال: (وَأَمَّا بَيَانُ أَنَّ هٰذا كُلَّهُ فِي وَصِيَّةِ اللهِ) في وصية الله: أي التي مرَّت معنا في أول الكتاب ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١] فهنا قد يسأل سائل: كيف جمعت هٰذه الآية هٰذا التفصيل الذي جاء في وصية معاذ، والخلق

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

الحسن لم يذكر في الآية؟ وهنا رَحِمَهُ اللَّهُ ابن تيمية يبين لنا عمق المعاني التي قد نغفل عنها، الله لما قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]؛ قوله: ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ هٰذا معنىٰ عميق واسع، يشمل أمورا عظيمة جدًّا، يحتاج أن يتحلىٰ بها الإنسان حتىٰ يكون من أهل التقوىٰ، تقوىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست كلمة يقولها الإنسان بلسانه أو دعوة يدَّعيها.

تقوىٰ الله لها حقيقة ولها معنىٰ عميق جدًّا، فشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بهٰذا يبين ذلك ويوضحه؛ يقول: (وَأَمَّا بَيَانُ أَنَّ هٰذا كُلَّهُ فِي وَصِيَّةِ اللهِ) يعني هٰذا الذي جاء في حديث معاذ موجود في وصية الله التي هي وصيته للأولين والآخرين ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ قال: (فَهُوَ أَنَّ اسْمَ «تَقْوَىٰ اللهِ») الذي جاء في الآية ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ (يَجْمَعُ فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ إِيجَابًا وَاسْتِحْبَابًا، وَمَا نَهَىٰ عَنْهُ تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا؛ وَهٰذا يَجْمَعُ: حُقُوقَ اللهِ وَحُقُوقَ الْعِبَادِ) إذن قول الله تعالىٰ: ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بإطلاقه وعمومه يتناول ما جاء في حديث معاذ «وخالق الناس بخلق حسن» لأن مخالقة الناس بخلق حسن مما أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به في كتابه، ومما أمرنا به الرسول صلوات الله وسلامه عليه في سنته.

قال: (لَكِنْ لَمَّا كَانَ تَارَةً يُعْنَىٰ بِالتَّقْوَىٰ خَشْيَةَ الْعَذَابِ، الْمُقْتَضِيَةَ لِلانْكِفَافِ عَنْ الْمَحَارِمِ، جَاءَ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ) يعني لما كانت التقوىٰ تارة يُراد بها خشية العذاب، يعني أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية تقيك بترك المحارم؛ البعد عن المحرمات، (جَاءَ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ) بأنْ ذكر مع التقوىٰ حسن الخلق، ولهٰذا تجد في آيات أيضًا -في القرآن- يُذكر مع التقوىٰ غيرها، مثل أحيانًا يُذكر مع التقوىٰ «البر» كما في «آية البر» في سورة البقرة وغير ذلك، يعني يذكر مع التقوىٰ معاني أخرىٰ، فعندما يُذكر مع التقوىٰ غيرها تكون التقوىٰ مُنْصبَّةً علىٰ ترك المحارم والذي ذُكر معها منصبًا علىٰ ما يقابل ذلك وهو فعل الأوامر.

قال: (جَاءَ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ، وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ: «تَقْوَىٰ اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ») ذكر الأمرين الذين وصىٰ بهما صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «تقوىٰ الله، وحسن الخلق» (قِيلَ: وَمَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ؟ قَالَ: الْأَجْوَفَانِ: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ») قال: هٰذه أكثر ما يدخل الإنسان النار: فرجه ولسانه، أكثر ما يكون سببًا لدخول الناس النار: الفرج واللسان.

وأيضًا جاء بما يقابل ذلك في حديث صحيح أن النبي ﷺ قال: «من يضمن ما بين فكيه وما بين فخذيه أضمن له الجنة -أو: يدخل الجنة-» بمعنىٰ أن من يحفظ لسانه ويحفظ فرجه له ضمان بدخول الجنة، ومن يغشىٰ الحرام بلسانه ويغشىٰ الحرام بفرجه عرَّض نفسه للعقوبة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا») قوله «في الصحيح»: أي في الحديث الصحيح، لأن أهل العلم رحمهم الله في إطلاق هٰذه العبارة:

- تارةً يراد «في الصحيح» أي في البخاري أو في مسلم، أي في أحد هذين الكتابين الذين التُزم فيهما بالصحة، وإيراد الصحيح عن الرسول عليه الصلاة والسلام.

- وتارةً يراد بذلكم، أي في الحديث الصحيح وإن لم يكن في «الصحيحين»، وهو المعني هنا.

قال: (وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا») فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الخلق، لاحظ المعنىٰ الذي يُنبَّه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتىٰ تدرك الخطأ الفادح الذي يقع فيه بعض الناس عندما يسيؤون فهم الأخلاق، يعني بعض الناس عندما يسيء فهم الأخلاق يقول: النبي ﷺ قال: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق أو صالح الأخلاق»، فيقولون: المهم في الدين الخلق! وبعضهم يسوق هٰذا الكلام في مقام التهوين من التوحيد ودراسته وتعلمه والتفقه فيه! ويقول: إن النبي ﷺ إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق.

وأعيد المعنىٰ السابق حتىٰ ندرك خطأ هؤلاء، أين الخلق عند من يشرك بالله؟! عند من يجعل مع الله الأنداد والشركاء؟! من يدعو غير الله؟! من يستغيث بغير الله؟! من يرفع يديه ويمدها ويقول مدد يا فلان؟! أين الخلق عند من يقوم بهٰذا العمل؟!

رب العالمين يخلقه، ويرزقه، ويمده بالصحة والعافية والمال، ويقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠] ثم يرفع يديه ويقول مدد يا فلان، أين الخلق ؟!

أين الخلق عند من يلتجأ بدعواته وعبادته وسؤاله وطلبه لغير الله؟!

أين خلق من يتجه إلىٰ المقبورين لمن لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، يبكي عند قبورهم،

يسألهم حاجاته، ويعرض عليهم طلباته، أين الخلق؟! «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» الخُلُق في عبادة الله، والخضوع له، وانشراح النفس والقلب بطاعته، وعبادته، ومعاملة الناس بالخلق الحسن.

فلاحظ هنا شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يقول: (فَجَعَلَ كَمَالَ الْإِيمَانِ فِي كَمَالِ حُسْنِ الْخُلُقِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِيمَانَ كُلَّهُ: تَقْوَى الله) إذن دخلت التقوى في قوله: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» فمن الخلق العظيم: تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من الخلق العظيم: إخلاص الدين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهكذا ينبغي أن تُفهم هٰذه الأحاديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بعيدًا عن تلك الفهوم المغلوطة التي تنشأ من أرباب إنحراف وأرباب ضلالات في المعتقد ونحوه، ثم يفهمون الأحاديث علىٰ غير وجهها وعلىٰ غير بابها.

قال: (وَتَفْصِيلُ أُصُولِ التَّقْوَىٰ وَفُرُوعِهَا لَا يَحْتَمِلُهُ هٰذا الْمَوْضِعُ) يعني الأمر يحتاج إلىٰ بسطٍ طويل وبيان واسع؛ لكن الموضع وخاصة أنَّ من طلب من شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ قال: «علىٰ سبيل الإيماء والاختصار» يعني يريد أن تشير لي إشارات، ما أراد تفصيلًا.

قال: (وَتَفْصِيلُ أُصُولِ التَّقْوَىٰ وَفُرُوعِهَا لَا يَحْتَمِلُهُ هٰذا الْمَوْضِعُ، فَإِنَّهَا الدِّينُ كُلُّهُ) التقوى هي الدين كله (لَكِنَّ يَنْبُوعَ الْخَيْرِ وَأَصْلَهُ: إِخْلَاصُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ: عِبَادَةً، وَاسْتِعَانَةً، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة] وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود] وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت:١٧]) فجماع الخير في هذين الأمرين:

- أن يخلص العبادة لله.
- وأن يخلص الاستعانة به تبارك وتعالىٰ.

فيعبده؛ لا يعبد غيره، ويستعين به تبارك وتعالىٰ ولا يستعين بغيره، يوضح ذلكم رَحِمَهُ اللهُ فيقول: (بِحَيْثُ يَقْطَعُ الْعَبْدُ تَعَلُّقَ قَلْبِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، انْتِفَاعًا بِهِمْ، أَوْ عَمَلًا لِأَجْلِهِمْ) يقطع من قلبه أن يكون متعلقًا بالمخلوقين، سواءً: من جهة الانتفاع بالمخلوقين أو من جهة العمل لأجل المخلوقين (وَيَجْعَلُ هِمَّتَهُ رَبَّهُ) يعني يجعل عزيمته، واهتمامه، وما يعمل لأجله: ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي الدعاء: «اللّٰهمَّ لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا».

قال: (وَيَجْعَلُ هِمَّتَهُ رَبَّهُ تَعَالَىٰ وَذَلِكَ بِمُلَازَمَةِ الدُّعَاءِ لَهُ فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ مِنْ: فَاقَةٍ، وَحَاجَةٍ، وَمَخَافَةٍ،

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

وَغَيْرِ ذَلِكَ) فلا يسأل إلا الله (وَالْعَمَلِ لَهُ بِكُلِّ مَحْبُوبٍ) فلا يعمل إلا لله، فيجمع بين ما سبق ذكره ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فلا يعمل إلا لله، ولا يستعين علىٰ ذلك إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لمَّا نبَّه علىٰ هٰذا المعنىٰ العظيم أكَّد علىٰ أهمية فهمه والعمل به، قال: (وَمَنْ أَحْكَمَ هٰذا) أي: علمًا وعملًا (فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ مَا يُعْقِبُهُ ذَلِكَ) يعني: ما يمكن أن توصف الخيرات والثمار والآثار العظيمة التي يجنيها من أحكم هٰذا الأمر علمًا وعملًا، والتَّوفيق بيد الله وحده لا شريك له، وهو جل وعلا وحده المعين، والهادي إلىٰ صراط مستقيم.

نسأله جل وعلا بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أن يصلح شأننا أجمعين، اللَّهمَّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحةً لنا من كل شر، اللَّهمَّ أعِنَّا ولا تُعِنْ علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا، وامكر لنا ولا تمكر علينا، واهدنا ويسر الهدىٰ لنا، وانصرنا علىٰ من بغىٰ علينا.

اللَّهمَّ اجعلنا لك ذاكرين، لك شاكرين، إليك أوَّاهين منيبين، لك مخبتين، لك مطيعين، اللَّهمَّ تقبل توبتنا، واغسل حوبتنا، وثبت حُجَّتنا، واهد قلوبنا، وسدِّد ألسنتنا، واسلل سخيمة صدورنا.

اللَّهمَّ اهدنا لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، اللَّهمَّ إنا نعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء.

اللَّهمَّ أعذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن شر الشيطان وشركه، اللَّهمَّ وأصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا، واهدنا سبل السلام، وأخرجنا من الظلمات إلىٰ النور، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا وأموالنا وأوقاتنا، واجعلنا مباركين أينما كُنَّا.

اللَّهمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللَّهمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا، اللَّهمَّ اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا، ولشيخ الإسلام ابن تيمية ولجميع علماء المسلمين، وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء

منهم والأموات.

سبحانك اللّٰهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إلٰه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله، نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

المجلس الرابع

فيقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في وصيته:

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ؛ فَإِنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيمَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ وَمَا يُنَاسِبُ أَوْقَاتَهُمْ فَلَا يُمْكِنُ فِيهِ جَوَابٌ جَامِعٌ مُفَصَّلٌ لِكُلِّ أَحَدٍ.

لَكِنْ مِمَّا هُوَ: كَالْإِجْمَاعِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بِاللهِ وَأَمْرِهِ: أَنَّ مُلَازَمَةَ ذِكْرِ اللهِ دَائِمًا، هُوَ أَفْضَلُ مَا شَغَلَ الْعَبْدَ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْجُمْلَةِ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ دَلَّ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنِ الْمُفَرِّدُونَ ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ».

وَفِيمَا رَوَاهُ أَبُو داود عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ؛ قَالَ: «ذِكْرُ اللهِ».

وَالدَّلَائِلُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالْإِيمَانِيَّةُ بَصَرًا، وَخَبَرًا، وَنَظَرًا عَلَىٰ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَأَقَلُّ ذَلِكَ أَنْ يُلَازِمَ الْعَبْدُ الْأَذْكَارَ الْمَأْثُورَةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ ﷺ.

كَالْأَذْكَارِ الْمُؤَقَّتَةِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ، وَعِنْدَ أَخْذِ الْمَضْجَعِ، وَعِنْدَ الِاسْتِيقَاظِ مِنَ الْمَنَامِ، وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ.

وَالْأَذْكَارِ الْمُقَيَّدَةِ، مِثْلُ مَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَاللِّبَاسِ، وَالْجِمَاعِ، وَدُخُولِ الْمَنْزِلِ وَالْمَسْجِدِ وَالْخَلَاءِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ، وَعِنْدَ الْمَطَرِ وَالرَّعْدِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ صُنِّفَتْ لَهُ الْكُتُبُ الْمُسَمَّاةُ بِعَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.

ثُمَّ مُلَازَمَةُ الذِّكْرِ مُطْلَقًا، وَأَفْضَلُهُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وَقَدْ تَعْرِضُ أَحْوَالٌ يَكُونُ بَقِيَّةُ الذِّكْرِ مِثْلُ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» أَفْضَلَ مِنْهُ.

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللَّهمَّ صلِّ وسلم عليه، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

اللَّهمَّ علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا، اللَّهمَّ اجعل ما نتعلمه حُجَّة لنا لا علينا، اللهم

اهدنا أجمعين إليك صراطًا مستقيما، وأصلح لنا شأننا كله يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام.

وبعد؛ أيها الإخوة الكرام، يقول الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَمَّا مَا سَأَلْت عَنْهُ) الضمير هنا كما هو معلوم عائد إلىٰ السائل: أبي القاسم السِّبتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، الذي طلب من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يكتب له وصية جامعة، وحدد ما أراد من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن يوصيه به، وكان ما جملة ما قال السائل: (وَيُنَبِّهنِي عَلَىٰ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَعْدَ الْوَاجِبَاتِ) فهٰذا شروع من شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لبيان هٰذا الأمر الذي سأل عنه هٰذا السائل.

وتأمَّل رعاك الله في هٰذا السؤال الذي يدل علىٰ عِظم مكانة الفرائض في نفوس هؤلاء ومكانتها العلية، فقال: (ينبهني علىٰ أفضل الأعمال بعد الواجبات) أي أن الواجبات وفرائض الدين لا تُفضَّل عليها الأعمال الأخرىٰ، بل هي مُقدَّمة، وبها يُبدأ، ولا يشتغل بنفل مُقدِّما له علىٰ فرض؛ بل يُبدأ عناية واهتمامًا بالفرائض والواجبات، ثم بعد ذلك تأتي المستحبات في درجة ثانية بعد الواجبات، ومن الخطأ الفادح أن يشتغل إنسان بنفلٍ علىٰ حساب فرض، وقد قال أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ: (من اشتغل بالنفل عن الفرض فهو مغرور، ومن اشتغل بالفرض عن النفل فهو معذور)؛ لأن الفرض هو المطلوب أصالة ويحاسب العبد علىٰ تركه ويعاقب علىٰ ذلك، وأ ما النوافل فإن شأنها أنها تزيد أجر العبد وثوابه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا فاته شيء منها لا يحاسب ولا يعاقب عليه، فهي يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها، فإذا اشتغل بها الإنسان مُقدِّمًا لها علىٰ فرض من الفرائض وواجب من الواجبات فهٰذا نوع من الغرور وهو خطأ فادح.

فإذن البحث في النوافل مرحلة تأتي بعد العناية بالفرائض، وما تقرب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متقربٌ بشيء أفضل من الفرائض، ولهٰذا جاء في الحديث الصحيح المعروف عند أهل العلم بـ«حديث الولي» إذا أردت أنْ تعرف من هم الأولياء فاقرأ هٰذا الحديث، خذوها فائدة يا إخوان حتىٰ لا يغتر مغتر ببعض الأدعياء، لأن الولاية هناك من يدَّعيها ويقول: أنا وأنا إلىٰ آخره، فهٰذا الحديث المعروف وهو في «صحيح البخاري»، معروف عند أهل العلم بـ«حديث الولي» بمعنىٰ إذا أردت أن تعرف الولي من هو؟ ما حقيقة الولي؟ من هم أولياء الله؟ اقرأ هٰذا الحديث، اقرأ كلام النبي صلوات الله وسلامه عليه يكشف لك ويجلِّي لك ويبين لك مَنِ الأولياء؟ فالحديث اشتهر عند أهل العلم بـ«حديث الولي» لأنه يُعرِّف من هو الولي؟ هو

حديث قدسي، الكلام فيه لله رب العالمين، يرويه النبي ﷺ عن ربه جل وعلا، قال ﷻ -في هٰذا الحديث القدسي-: «من عادىٰ لي وليًا فقد آذنته بالحرب» كأنه قيل: ومن الولي؟ جاء البيان في هٰذا الحديث القدسي من كلام رب العالمين ﷻ، قال: «من عادىٰ لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أُحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه» فالحديث بيَّن مَنْ هو الولي بيانًا وافيًا لا مزيد عليه، ففيه أن أولياء الله ﷻ علىٰ درجتين، كلهم أولياء لله لكنهم علىٰ درجتين، إحدىٰ الدرجتين أعلىٰ من الأخرىٰ، **الدرجة الأولى في الولاية -درجة الأولياء-**: المحافظة علىٰ الفرائض، المحافظة علىٰ فرائض الإسلام؛ واجبات الدين، البعد عن المحرمات، فإذا كان العبد محافظًا علىٰ فرائض الإسلام، واجبات الدين، مبتعدًا عن الحرام، فهو من أولياء الله ﷻ، وهي درجة من درجات الولاية وتسمىٰ: «درجة المقتصدين» والله جل وعلا يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢].

والمقتصد: هو الذي يتقرَّب إلىٰ الله ﷻ بالواجبات -بالفرائض- لا يفوِّت فرضًا ولا يرتكب محرمًا، فهٰذا ولي من أولياء الله ﷻ، وهو في هٰذه الدرجة «درجة المقتصدين».

والدرجة الثانية في الولاية -أرفع من هٰذه الدرجة وأعلىٰ- وهي: **درجة المقربين.**

وإليها الإشارة في هٰذا الحديث القدسي بقوله ﷻ: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل» أي بعد الفرائض، بعد المحافظة علىٰ الفرائض والواجبات «حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه» أي أن الله ﷻ يُسدده في سمعه وفي بصره وفي يده وفي قدمه، فبالله يسمع وبه يبصر وبه يمشي وبه يبطش، مؤيدًا مُسددًا مُعانًا مُوفقًا من الله ﷻ رب العالمين، ودعواتُه مستجابات، إنْ سأل الله أعطاه وإنْ استعاذ بالله أعاذه، فأولياء الله ﷻ هم هؤلاء، وهم كما اتَّضح في هٰذا الحديث العظيم علىٰ درجتين: «درجة المقتصدين» الذين يحافظون علىٰ واجبات الدين ويبتعدون عن المحرمات، وأعلىٰ من هؤلاء درجة: «درجة المقربين» وهم الذين يحافظون علىٰ الفرائض ويزيدون عليها تسابُقًا إلىٰ النوافل

والرغائب والمستحبات.

وبهٰذا الحديث يتبين للإنسان مَنْ هم أولياء الله؟ ومَنْ هم الأدعياء؟ لأن الأمة بُليت بأناس يدَّعون لأنفسهم الولاية وأنهم أولياء الله ويتكلمون بذلك ويشيرون إلىٰ أنفسهم بذلك، مع أن ولي الله الصادق لا يُزكِّي نفسه، لا يقول: أنا من أولياء الله، الله جل وعلا يقول عن أوليائه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سألت النبي عليه الصلاة والسلام عن معنىٰ هٰذه الآية، قالت: يا رسول الله، أهو الرجل يزني ويسرق ويقتل ويخاف أن يعذب؟ هل هٰذا هو معنىٰ قوله: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قال: «لا يا ابنةَ الصديق، ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل».

عبد الله بن أبي مليكة من علماء التابعين، يقول: «أدركت أكثر من ثلاثين صحابيًا كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه» والله جل شأنه يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢].

الشاهد أن الأمة ابتُليت بأقوام يدَّعون أنهم أولياء، ويقول لمن حوله ولأتباعه: «أنا من أولياء الله» وربما قال: «أنا من خاصة أولياء الله» أو غير ذلك من الكلام، ثم أفعالُه جَمَعَ فيها بين سوءتين:

- السوءة الأولىٰ: ترك الواجبات، ترك واجبات الدين وفرائض الإسلام، حتىٰ إن بعض هؤلاء الأولياء المزعومين يُذكر عنه أنه إذا قامت الصلاة في المسجد يستند علىٰ السارية وأتباعه يصلون وهو لا يصلي، وإذا قيل له: لِمَ لا تصلي؟ قال: أنا من أولياء الله، سقطت عني التكاليف، وربما قال لهم: الله قال في القرآن: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر] وأنا وصلت إلىٰ درجة اليقين، فلا يصلي، وأيضًا لا يؤدون العبادات الأخرىٰ: مثل الحج والاعتمار والطواف، حتىٰ يقول بعضهم -وهٰذا مسجل في كتب هؤلاء أهل الخرافة والضلال- يقولون: (إن الولي الصادق مقامه أعظم من أن يذهب ويطوف بالبيت، بل البيت هو الذي يأتي إليه ويطوف به) وبناءً علىٰ هٰذا التخريف والضلال، في بعض كتب الفقه التي انطلت عليها هٰذه الخرافة عقدوا مسألة فقهية قالوا: إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء، إلىٰ أين يصلي الناس؟ قال صاحب الكتاب: للعلماء في هٰذه المسألة قولان:

قال: أما القول الأول فإنهم يصلون إلىٰ جهة الكعبة باعتبار أنها الأصل، وأن الناس لا يدرون عن الكعبة في أنحاء الدنيا أنها ذهبت مثلا إلىٰ الهند أو إفريقيا أو غيرها من البلدان لولي من الأولياء.

قال: والقول الآخر من أقوال أهل العلم: يتعيَّن علىٰ الناس أن يبحثوا عن الكعبة أين ذهبت؟ ويسألون ويتجهون إليها.

قولان لأهل العلم يقول، كلها مبنية علىٰ الخرافة والضلال الذي ينطلي علىٰ الناس، وهٰذا كله داخل باسم ماذا؟! الولاية، أولياء، عبث بدين الله، عبث بفرائض الإسلام وواجبات الدين، عبث بما يتقرب إلىٰ الله به من فرائض وصلاة وحج واعتمار وغير ذلك، وكله يُروَّج لدىٰ الجهلة والعوام باسم «الولاية» ويقولون: «الولي مقامه أعلىٰ من أن يطوف بالبيت، والبيت هو الذي يذهب إليه ويطوف به»! مع أن سيد الأولياء؛ وإمام الأتقياء؛ وخير عِباد الله صلوات الله وسلامه عليه طاف بالبيت مرارًا صلوات الله وسلامه عليه، أربع مرات اعتمر، وحج صلوات الله وسلامه عليه حجة الوداع، ثم يدَّعي هؤلاء الأدعياء أن مقام الولي أعلىٰ من أن يطوف بالبيت!. إذًا أصبحت الولاية لدىٰ بعض الناس إضاعة للفرائض من جهة، هٰذه سوءة.

- والسوءة الأخرىٰ: ارتكاب المحرمات باسم «الولاية» من جهة أخرىٰ، يمارس بعضهم بعض المحرمات باسم «الولاية» وتفاصيل هٰذه الأمور عن هؤلاء تُدمي القلوب وتؤلم النفوس المؤمنة لكن نقول: حسيبهم الله، إجرام وإساءة لدين الله تبارك وتعالىٰ يُمارس ويُرتكب باسم «الولاية». فلنترك هؤلاء وضلالهم جانبًا ونعيش مع حديث النبي عليه الصلاة والسلام.

النبي صلوات الله وسلامه عليه بيَّن لنا في هٰذا الحديث القدسي مَنْ هم الأولياء؟ وأن أولياء الله ﷻ علىٰ درجتين، أما الذي يضيع الفرائض ويرتكب المحرمات؛ هٰذا ليس من أولياء الله، لا تكون الولاية بإضاعة الفرائض، ولا تكون الولاية بارتكاب المحرمات. فإذًا هٰذا الحديث حدَّد لنا مَنْ هم أولياء الله حقًا وصدقًا؟.

هٰذا السائل الموفق أبو القاسم السبتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ طلب من شيخ الإسلام أن يبين له أفضل الأعمال بعد الفرائض، بمعنىٰ أنه مُتقرر: أن الفرائض ركائز؛ أسس، لابد من المحافظة عليها، والبحث عن النوافل يكون بعد ضبط الفرائض، لأنها هي الأعمدة التي يقوم عليها بناء الدين كما قال عليه الصلاة والسلام: «بني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان» ومثل من يريد أن يعتني بالنوافل وهو مضيِّع للفرائض؛ مثل: رجل يقيم عمارة من ستة

طوابق، سبعة طوابق، أكثر من ذلك، ويعتني بالمُحسِّنات والمُجمِّلات، لكن الأعمدة ليست بشيء، يقيمها علىٰ غير أعمدة، فهٰذه العمارة التي شُيِّدت وزُيِّنت وزُخرفت وجُمِّلت سُرعان ما تنهار لأنها ليست قائمة علىٰ أعمدة:

والبيت لا يبتنىٰ إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم تُرس أوتاد

فالفرائض: هي أعمدة الدين التي عليها قيام دين الله، ولهٰذا قال عليه الصلاة والسلام: «والصلاة عماد الدين»، فإذًا هٰذا السائل الموفق طلب من شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبين له النوافل التي يُستحب للمسلم أن يعتني بها بعد الفرائض، ويبين له ما هي أفضل النوافل؟ فأجابه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (وَأَمَّا مَا سَأَلْت عَنْهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ؛ فَإِنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيمَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ وَمَا يُنَاسِبُ أَوْقَاتَهُمْ) وهٰذه إجابة عظيمة ومُسدَّدة، وذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بهٰذا الإجمال لأن السائل طلب ذلك، طلب الإجمال والاختصار والإماء، وفصَّل رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذا المعنىٰ وتوسَّع فيه في مواضع عديدة من كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وقرَّر ما أشار إليه هنا إجمالًا وهو: أن الأمر يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه.

تجد إنسان أكرمه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بحافظة قوية جدًّا؛ تُهيئه، فهي عظيمة لحفظ الأحاديث وحفظ الأدلة وحفظ أقوال أهل العلم، ولا يمر عليه قول إلا حفظه، فهٰذا مُهيأ لشيء، وآخر ليس عنده حافظة؛ فهل المطلوب من هٰذا مثل المطلوب من هٰذا؟ قدرات مختلفة، هٰذا عنده قدرة علىٰ الحفظ، وهٰذا لا قدرة له علىٰ الحفظ.

ولهٰذا من الخطأ أن يأتي الإنسان لمن يربيهم من نشء وأولاد ولا يُراعي جانب القدرات في الأبناء، وهٰذا ملمح أشار إليه أهل العلم ومنهم العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تحفة الودود في أحكام المولود» وأشار إلىٰ أن أهل العلم والسلف رحمهم الله يعتنون بهٰذا الجانب، فيجد الإنسان من أبنائه مَنْ عنده عناية بالحفظ وذاكرة قوية جدًّا، وآخر ليس عنده قدرة علىٰ الحفظ، إذًا مُراعاة هٰذا الجانب الذي أشار إليه: اختلاف الناس فيما يقدرون عليه، شخص عنده قدرة علىٰ الصيام، آخر ليس عنده قدرة علىٰ الصيام، إما أن صحته لا تساعده أو بُنية جسمه لا تساعده علىٰ الصيام أو معه بعض الأمراض التي لا تساعده علىٰ الصيام، فمن الخطأ إذا فُتح علىٰ الإنسان مثلًا في باب الصيام ووفِّق في هٰذا الباب أن يحرص علىٰ إلزام الآخرين بهٰذا الباب الذي فُتح له به، فهٰذا يُفتح له في العلم، وهٰذا يُفتح له في الصيام، وهٰذا

يُفتح له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهٰذا يُفتح له بالعبادة وكذا، كلٌّ علىٰ خير، وكلٌّ ميسرٌ لما خلق له، ولا يُطلب من الإنسان من الأعمال والعبادات ما لا يستطيعه أو لا يقدر عليه أو يشق عليه، بل يُنظر في ذلك فيما يقدر عليه الإنسان وفيما فُتح علىٰ الإنسان به، ذاك فُتح عليه في العلم، وهٰذا فُتح عليه بالعبادة.

وهنا أروي لكم قصة مفيدة جدًا توضِّح لنا هٰذه المسألة، أوردها الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتابه «السير» في ترجمة الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وهي: أن أحد العُبَّاد، رجل فتح الله عليه في العبادة، صلاة وصيام وقيام ليل وأذكار إلىٰ غير ذلك، والإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعطي طلاب العلم وقتًا، تدريس وإقراء ورواية الحديث، فكتب ذلك العابد للإمام مالك وصية يحضُّه فيها علىٰ الانفراد والعمل، يقول: اترك الطلاب واترك التعليم وانفرد بنفسك واشتغل بالعبادة والعمل، فكتب للإمام مالك ينصحه بهٰذه النصيحة، هٰذا الرجل فُتح عليه بالعبادة والعمل ورأىٰ هٰذا الخير العظيم الذي فتح الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليه به، فكتب ينصح الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهٰذا الذي فُتح عليه به، فماذا قال له ذلك العالم الجليل الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ؟! كتب إليه مالك بن أنس: (إن الله قَسَم الأعمال كما قَسَم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتح لي، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا علىٰ خير وبر).

كلام علم (وأرجو أي يكون كلانا علىٰ خيرٍ وبر) أنت علىٰ خير وبر في عبادتك وطاعتك وتقربك إلىٰ الله، وأنا أيضًا علىٰ خير وبر في نشري للعلم، لأن نشر العلم نفعه متعدي، ونشر العلم يحتاج إلىٰ وقت للتعلم والتفقُّه والمذاكرة والمدارسة حتىٰ يكون عنده شيء يُعلِّمه الناس، فالذي ينشغل بالعبادة ولا يُدرك هٰذه الحقيقة ربما ينزعج من رؤية الكتب بأيدي الطلبة وإقبال الطلبة علىٰ الحفظ وعلىٰ القراءة، وربما عدَّ ذلك نوعًا من ضياع الوقت، حتىٰ إن بعض من ابتُلوا بشيء من الطُرُقية يقولون: «آفة المُريد ثلاث: وذكروا منها حمل الكتب» أتدرون آفة من الآفات أن يحمل بيده كتب الحديث؛ يحفظها ويقرؤها لأنها بزعمهم تعوقهم عن العمل وعن العبادة!!! وهٰذا من الخطأ الفادح.

فالذي يفتح الله عليه بالعبادة يشتغل بها ويتقرب إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهو كما قال الإمام مالك: (علىٰ خير وبر) والذي يفتح الله عليه بالعلم أيضًا فهٰذا ليس بدون ذاك، وفي الحديث: «فضل العالم علىٰ العابد

كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب».

فالشاهد أن هٰذه أبواب، وكل ميسرٌ لما خلق له، فكل إنسان فيما يفتح الله عليه وما يتيسر له؛ يجتهد فيه ولا يُفوِّت علىٰ نفسه بابًا من أبواب الخير فتح الله ﷻ عليه به.

وأيضًا من لطيف ما يُروىٰ في هٰذا الباب: أن أحد السلف كان في مجلس يُعلِّم الطلاب ويفقههم في الدين وفي الحلال والحرام وهو أحد الأئمة يقال له: «أبو السُوَّار العَدَوي» فكان في المجلس شاب فقاطعه وقال: سبحوا يا إخوان، هللوا، اذكروا الله -في الدرس وهٰذا يعلمهم الحلال والحرام والأحكام- حريص هو ما قال ذلك عن نية سيئة أوعن قصد لكنه رجل فتح الله عليه بالذكر ورأىٰ هؤلاء مشتغلين في الحلال والحرام ولا يُدرك قيمة هٰذا الأمر ومكانته والحاجة الشديدة إليه، فقال له أبو السوار: وَيحَك! وما نحن فيه منذ اليوم، الذي نحن مشتغلين فيه منذ اليوم ما هو؟! هٰذا كله ذكر لله، ولهٰذا مجالس الحلال والحرام؛ وقال الله تعالىٰ؛ وقال رسوله ﷺ، وهٰذا يجوز وهٰذا لا يجوز، وهٰذا حلال وهٰذا حرام، هٰذه كلها مجالس ذكر لله تبارك وتعالىٰ داخلة في قول النبي ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال:« حلق الذكر» حلق الذكر: هي المجالس التي يبين فيها دين الله، توضح فيها الأحكام، يتفقه الإنسان، يعرف الحلال والحرام،يعرف الأحكام، هٰذه كلها مجالس ذكر لله تبارك وتعالىٰ.

قال: (وَمَا يُنَاسِبُ أَوْقَاتَهُمْ) وأيضًا هٰذا ملحظ في معرفة الأفضل من الأعمال، ما يُناسب الوقت، إذا عرفنا أن الصلاة أفضل الأعمال، وأن قراءة القرآن مثلًا أفضل من الذكر، وأن الذكر أفضل من الدعاء، هكذا من حيث الإجمال، نجد أنه في بعض الأوقات يكون الدعاء أفضل، الأوقات التي جاء فيها دعاء؛ الدعاء فيها أفضل من قراءة القرآن؛ بل إن النبي ﷺ نهىٰ عن قراءة القرآن والإنسان ساجد، وقال: «أكثروا من الدعاء» فإذًا الدعاء والإكثار من الدعاء والعبد ساجد أفضل من تلاوة القرآن، مع أنه من حيث الجملة تلاوة القرآن أفضل من الدعاء وأفضل من الذكر، لكن قد يكون في وقتٍ المفضول أفضل من الفاضل لأجل الوقت، عندك مثلًا بعد العصر: وقت نهي عن الصلاة، فالأفضل بعد العصر أذكار المساء، تلاوة القرآن، لو أراد الإنسان يقول أريد أن أقوم أصلي لله نافلة، يقال له: لا، ليس وقت صلاة، ينهىٰ عن الصلاة إذا صلىٰ العبد العصر؛ إلىٰ المغرب وقت نهي عن الصلاة، فإذن مُراعاة الوقت أيضًا ينبني عليه

معرفة الأفضل في باب النوافل.

ولهٰذا يقول شيخ الإسلام: (فَلَا يُمْكِنُ فِيهِ جَوَابٌ جَامِعٌ مُفَصَّلٌ لِكُلِّ أَحَدٍ) لكن يمكن أن يعطىٰ قاعدة في هٰذا الباب متينة، أشار إليها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، وكذلكم أشار إليها وفصَّلها تلميذه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وهي: «أن الأفضل في باب النوافل في كل وقت الأوفق للسنة في ذلك الوقت» هٰذه قاعدة: الأفضل في كل وقت الأوفق للسنة في ذلك الوقت، مثلًا: بيدك القرآن تقرأ، هٰذه القراءة من أفضل الأعمال، أذَّن المؤذن وأنت تقرأ القرآن؛ هل الأفضل أن تستمر في القراءة أو أنك تُوقِف القراءة وتُجيب المؤذن؟!

جاء وقت أذكار الصباح أو أذكار المساء أو نحو ذلك، إذن الأوفق للسنة هو الأفضل، فالأفضل في كل وقت الأوفق للسنة في ذلك الوقت، هٰذه قاعدة شريفة في باب المفاضلة في الأعمال، ما هو أفضل الأعمال؟ مثل ما قال شيخ الإسلام، قال: (فَلَا يُمْكِنُ فِيهِ جَوَابٌ جَامِعٌ مُفَصَّلٌ لِكُلِّ أَحَدٍ) لكن الأفضل في كل وقت الأوفق للسنة في ذلك الوقت (لَكِنْ مِمَّا هُوَ كَالْإِجْمَاعِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بِاَللهِ وَأَمْرِهِ: أَنَّ مُلَازَمَةَ ذِكْرِ اللهِ دَائِمًا هُوَ أَفْضَلُ مَا شَغَلَ الْعَبْدَ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْجُمْلَةِ).

أولًا: تأمَّل قول شيخ الإسلام: (كالإجماع بين العلماء بالله وبأمر الله) وقد نقل رَحِمَهُ اللَّهُ في مواضع عديدة من كتبه عن أحد أئمة السلف وهو «أبو حيان التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ» أنه قال: (العلماء ثلاثة:

- عالم بالله ليس عالمًا بأمر الله.
- وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله.
- وعالم بالله عالم بأمر الله).

والعالم بالله: الذي يخاف الله، يعظم الله، يخشىٰ الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] والعالم بأمر الله: الذي يعرف الحلال والحرام والأحكام، فهنا يقول رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (كَالْإِجْمَاعِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بِاَللهِ) أي: الذي يخافون الله، ويخشونه، ويعظّمونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (وَأَمْرِهِ) أي: الذين يعرفون الأمر والنهي، والحلال والحرام والأحكام (أَنَّ مُلَازَمَةَ ذِكْرِ اللهِ دَائِمًا هُوَ أَفْضَلُ مَا شَغَلَ الْعَبْدَ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْجُمْلَةِ) فذكرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: هو مقصود الأعمال، شُرعت الصلاة لأجله، وشُرع الحج لأجله، وشُرعت أنواع الطاعات وصنوف الأعمال لأجله، لإقامة ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن في الجملة: أفضل العمل ذكر الله ﷻ، وهو أفضل ما شُغلت فيه الأوقات وأُمضيت فيه الأنفاس ذكر الله ﷻ، وساق على ذلكم دليلين، قال: (وَعَلَىٰ ذَلِكَ دَلَّ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنْ الْمُفَرِّدُونَ ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ») فهٰذا يدل على سبق الذاكرين، والحديث كأنه يبين أن أهل الأعمال الصالحات في مضمار سباق، قال: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنْ الْمُفَرِّدُونَ ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ») فأهل العبادة والطاعة والقربات إلىٰ الله كأنهم في مضمار سباق، أسبقهم في هٰذا المضمار؛ من هم؟! قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ».

قال: (وَفِيمَا رَوَاهُ أَبُو داود عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﭬ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ») انظر هٰذا التشويق العظيم من هٰذا الناصح صلوات الله وسلامه عليه، بهٰذه المقدمات، ألا أنبئكم بكذا وكذا، شوّق القلوب شوقًا عظيمًا إلىٰ هٰذا الأمر، ولهٰذا الصحابة ﭫ قالوا: (بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ)، أي نبئنا بهٰذا الأمر الذي هو خير الأعمال، وأزكاها عند الله ﷻ، وأرفعها في الدرجات، وخير من إعطاء الذهب والورق -يعني الفضة- وخير من أن يلقىٰ الإنسان العدو فيضرب أعناق العدو أو يضربوا عنقه فيموت في سبيل الله تبارك وتعالىٰ، (قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «ذِكْرُ اللهِ») فهٰذا يدل على فضل الذكر كما قال شيخ الإسلام من حيث الجملة، وأن ذكر الله ﷻ أفضل الأعمال من حيث الجملة، وأنه أفضل ما شُغل فيه الأوقات وأُمضيت فيه الأوقات، وهو الذي شُرعت لأجله الطاعات والعبادات.

و(**أفضل أهل كل طاعة أكثرهم فيها ذكرًا لله**) هٰذه قاعدة أيضًا شريفة في باب العبادات، عظيمة جدًّا «أفضل أهل كل طاعة أكثرهم فيها ذكرًا لله» وفي هٰذا حديث يُرفع إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام، قيل: يا رسول الله أي الصائمين أعظم أجرًا؟ قال: أكثرهم لله ذكرًا قيل: أي العُمَّار أكثر أجرًا، قال: أكثرهم لله ذكرًا، وذُكر له أنواع من العبادات في كل ذلكم يقول: أكثرهم لله ذكرا، أورده ابن القيم ﬀ في كتابه «الوابل الصيب» واستخلص منه قاعدة وهي: أن أفضل أهل كل طاعة أكثرهم فيها ذكرًا لله، أفضل الصوَّام أكثرهم لله ذكرًا في صومهم، أفضل الحجاج أكثرهم ذكرًا لله في حجهم، أفضل المصلين أكثرهم

لله ذكرًا في صلاتهم.. وهكذا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (وَالدَّلَائِلُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالْإِيمَانِيَّةُ بَصَرًا، وَخَبَرًا، وَنَظَرًا عَلَىٰ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ) علىٰ أن الذكر هو أفضل الأعمال:

الدلائل القرآنية في القرآن أدلة كثيرة جدًا تدل علىٰ فضل الذكر وعظيم ثواب أهله عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كقوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب] وقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب] والآيات في هٰذا المعنىٰ في كتاب الله تبارك وتعالىٰ كثيرة.

قال: (وَالْإِيمَانِيَّةُ) الدلائل الإيمانية؛ أي شواهد الإيمان التي تقوم في القلوب ويبصرها أهل الإيمان ويعاينونها ويشاهدونها، ولهٰذا نوَّع، قال: (بَصَرًا، وَخَبَرًا، وَنَظَرًا) أي فيما يشاهده أهل الإيمان، وأيضًا في الأخبار التي تُنقل لهم، الأخبار التي تُنقل في فضل الذكر وعظيم عائدته، تجد أخبار عظيمة جليلة تُنقل تدل دلائل واضحة علىٰ فضل الذكر وعظيم أثره وكبير فائدته وعظيم عوائده علىٰ الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات (ونظرًا) أي ما يقوم في البصائر والقلوب من معاينة ومُشاهدة لمكانة الذكر وعظيم منزلته ورفيع درجته، قال: (بصرًا، وخبرًا، ونظرًا علىٰ ذلك كثيرة) أي علىٰ فضل الذكر وتقدُّمه وعلو منزلته، ثم أخذ يبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ القَدْر الذي يكون به العبد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، الذين يفوزون بهٰذه الأجور، والله يقول كما مرَّ معنا والذاكرين ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب] فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَقَلُّ ذَلِكَ) يعني: أقل حظ وقدر من الذكر يأتي به العبد ليكون من هؤلاء، الذين هم من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات (وَأَقَلُّ ذَلِكَ أَنْ يُلَازِمَ الْعَبْدُ الْأَذْكَارَ الْمَأْثُورَةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هنا أيضًا لفتة تحتاج إلىٰ وقفة لا تطول، قال: (عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الناس الآن مُبتلين يا إخوان، الناس الآن في زماننا مبتلين بكتب بأيديهم فيها أذكار وأدعية ليست منقولة عن معلِّم الخير صلوات الله وسلامه عليه، ولا عن إمام المتقين صلوات الله وسلامه عليه، وإنما أذكار وأدعية تكلَّفها المتكلفون وأنشأها المخترعون، ووقَّتوا لها أوقاتًا وهيئوا لها

أوصافًا، وتراها بكثرة بأيدي الناس، وليست مبنية علىٰ ما صح عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وبعضها فيها من الغلو، وفيها من الخرافة، وفيها من الضلال ما الله ﷻ به عليم، فينبه شيخ الإسلام علىٰ أن المسلم إذا أراد أن يكون من أهل الذكر لله حقًّا وصدقًا عليه بالأدعية المأثورة عن النبي ﷺ معلم الخير؛ إمام المتقين، إمام الذاكرين صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: (كَالْأَذْكَارِ الْمُؤَقَّتَةِ) لأن الأذكار المأثورة عنه أذكار مؤقتة وأذكار مطلقة، الأذكار المؤقتة قال: (فِي أَوَّلِ النَّهَارِ) مثلًا (وَآخِرِهِ) وهي ما يعرف بأذكار الصباح والمساء (وَعِنْدَ أَخْذِ الْمَضْجَعِ) والنبي عليه الصلاة والسلام جاء عنه أذكار عديدة يشرع للمسلم أن يقولها إذا أوىٰ إلىٰ مضجعه، أذكار عظيمة جدًّا، فيها من الخير والنفع والفائدة وقوة الإيمان وسلامة الفطرة وحسن الإقبال علىٰ الله ﷻ والخاتمة الطيبة والنوم الهنيء، ثمار لا حدَّ لها ولا عد لمن يكرمه الله ﷻ بالمحافظة علىٰ الأذكار المأثورة عن النبي صلوات الله وسلامه عليه، عندما يأوي المرء إلىٰ فراشه، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام؛ يعني إذا قام من النوم، يؤثر عن النبي ﷺ أذكار وأدعية في بعضها ذَكَرَ النبي ﷺ أن من قام من نومه وأتىٰ بها ودعىٰ أُستجيب دعاؤه، لا يُرد له دعاؤه، وكم نُفوِّت علىٰ أنفسنا من خيرات؟!

كم نُفوِّت علىٰ أنفسنا من غنائم وأرباح وخيرات عِظام مأثورة عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه؟!

قال: (وَعِنْدَ الِاسْتِيقَاظِ مِنْ الْمَنَامِ، وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ) أي المكتوبات، وهناك أذكار مأثورة عن النبي ﷺ يؤتىٰ بها دبر كل صلاة مكتوبة، أي خمس مرات في اليوم والليلة.

قال: (وَالْأَذْكَارِ الْمُقَيَّدَةِ) معطوف علىٰ قوله: (كَالْأَذْكَارِ الْمُؤَقَّتَةِ)؛ (وَالْأَذْكَارِ الْمُقَيَّدَةِ) أي المُقيَّدة بشيء معين، تلك «مؤقتة» يعني بوقت معين وهٰذه «مقيدة» بأمر معين، قال: (مِثْلُ مَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ) من التسمية في أوله، والحمد في تمامه وعند (اللِّبَاسِ) وعند (الْجِمَاعِ) وعند (دُخُولِ الْمَنْزِلِ وَالْمَسْجِدِ وَالْخَلَاءِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ) أي عند الخروج من المنزل والمسجد والخلاء (وَعِنْدَ الْمَطَرِ) وعند (الرَّعْدِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ) أي من الأذكار المقيدة والمؤقتة.

(ثُمَّ مُلَازَمَةُ الذِّكْرِ مُطْلَقًا) هناك أذكار مطلقة، ليست مقيدة بوقت، (وَأَفْضَلُهُ) يعني: أفضل الذكر المُطلق («لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ») وقد صحَّ في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «وخير ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير» وصحَّ عنه عليه

الصلاة والسلام أنه قال: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله» وجاءت عنه أحاديث كثيرة صلوات الله وسلامه عليه في فضل الذكر بهٰذه الكلمة العظيمة، كلمة «لا إله إلا الله» التي هي أعظم الكلمات علىٰ الإطلاق، وأجلها علىٰ الإطلاق، وهي كلمة التوحيد، وكلمة الشهادة، وكلمة الإخلاص، وهي مفتاح الجنة، وأساس السعادة في الدنيا والآخرة.

قال: (وَأَفْضَلُهُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ») و «لا إله إلا الله» كما عرفنا هي كلمة التوحيد، فلا توحيد إلا بهٰذه الكلمة، وهي قائمة علىٰ النفي والإثبات.

«لا إله»: نفي للعبودية عن كل ما سوىٰ الله.

«إلا الله»: إثبات للعبودية بكل معانيها لله وحده.

فمعنىٰ «لا إله إلا الله»: إخلاص الدين لله، إفراد الله ﷻ وحده بالذل والخضوع والحب والرجاء والخوف والعبادة، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥] وكما قال جل وعلا: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٣] وكما قال جل وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] وكما قال جل وعلا: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦] هٰذا هو معنىٰ «لا إله إلا الله». و«لا إله إلا الله» ليست نافعةً لقائلها إذا لم يفهم معناها ويحقق مدلولها، وهي تدل علىٰ الإخلاص وإفراد الله ﷻ بالعبادة.

قال: (وَأَفْضَلُهُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». وَقَدْ تَعْرِضُ أَحْوَالٌ يَكُونُ بَقِيَّةُ الذِّكْرِ مِثْلُ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» أَفْضَلُ مِنْهُ) (أفضل) أي: من «لا إله إلا الله»، يعني مثلًا إذا قال المؤذن: (الله أكبر الله أكبر) ما الأفضل أن تقول؟ أن تقول: الله أكبر الله أكبر، فهي هنا أفضل من أن تقول «لا إله إلا الله» مع أن «لا إله إلا الله» أفضل الذكر، فقد تعرض أحوال يكون فيها التسبيح والتحميد والتكبير أفضل، مثل لو قال إنسانٌ والعياذ بالله في حق الله قولًا باطلًا، ما الأفضل في هٰذا المقام؟ سبحان الله، ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات] إذا كان المقام: مقام تنزيه فالأفضل أن تسبح الله.

إذا جئنا مثلًا: في الحديث قال: « إن الله ليرضىٰ عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها » الحمد هنا أفضل، إذا أكل الإنسان أكلة؛ الحمد هنا أفضل. إذن قد تعرض أحوال تكون هٰذه الكلمات التي هي دون

لا إله إلا الله في الفضل؛ أفضل في تلك الحال العارضة من قول «لا إله إلا الله» وهٰذا فيه تأكيد للقاعدة السابقة التي أشار إليها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثم إن هٰذه الكلمات الأربع: «لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر» هي أفضل الكلمات وأحبها إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وفضائلها كثيرة جدًّا، وقد ثبت في الصحيح عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أحب الكلام إلىٰ الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» وصحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لئن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس».

وقريبًا مرَّ معنا كلام شيخ الإسلام عن الإكثار من الحسنات، وفي كلامه علىٰ قول النبي عليه الصلاة والسلام: «أتبع السيئة الحسنة تمحها».

ومرَّ معنا قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤] حسنة التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل أعظم الحسنات، ولها أثر عجيب جدًّا في تكفير الذنوب.

والنبي عليه الصلاة والسلام وضح هٰذا الأمر بمثال عجيب والحديث في «سنن الترمذي» وهو ثابت، ضرب مثال عجيب جدًا يوضِّح أثر هٰذه الكلمات الأربع في تكفير الذنوب وإذهاب السيئات، جاء في «سنن الترمذي»: (أن النبي عليه الصلاة والسلام كان مع أصحابه يومًا فمرُّوا بشجرة يابسة -شجرة لها ورق ويابسة- وكان بيده عليه الصلاة والسلام عصا، فضرب الشجرة اليابسة بالعصا التي بيده فأخذ الورق اليابس يتساقط أمام أعين الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من هٰذه الشجرة، أخذ يتساقط الورق، والصحابة ينظرون إلىٰ الورق يتساقط، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لتُساقط ذنوب العبد كما تساقَط ورق هٰذه الشجرة»).

والصحابة ينظرون إلىٰ الشجرة والورق يتساقط منها، وإذا أردت أن تعاين، إذا رأيت يومًا شجرة يابسة اضربها بالعصا وانظر كيف يتساقط الورق؟! لاسيما إذا كانت يابسة تمامًا، اضرب وانظر كم يتساقط منها من ورق؟! وأنا لا أدعو إلىٰ ضرب الأشجار والأوراق ولكن أدعو إلىٰ الإكثار من الذكر: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» لكنني أستحضر معكم في هٰذا المجلس هٰذا المثل العجيب الذي ضربه الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه حثا لنا علىٰ هٰذه الكلمات العظيمة

«سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» وبيان الأثر العظيم الذي لهٰذه الكلمات في تكفير الذنوب.

وفي حديثٍ لأبي ذر في «مسند الإمام أحمد» ذكر له النبي عليه الصلاة والسلام المعنىٰ نفسه «أتبع السيئة الحسنة تمحها» قال أبو ذر: يا رسول الله؛ أفمن الحسنات لا إله إلا الله، قال: «هي أحسن الحسنات» والمقام مقام تكفير السيئات، فلا إله إلا الله هي أحسن الحسنات.

وهٰذه الكلمات الأربع هي أفضل ما شَغَل الإنسان به وقته، وهي أحب الكلام إلىٰ الله ﷻ.

وأضاف إليها كلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله» وقد جاء عن النبي ﷺ أنها من كنز تحت العرش، وقال عليه الصلاة والسلام: « أكثروا من قول: لا حول ولا قوة بالله» وهٰذه الكلمة كلمة عظيمة جدًّا في باب طلب العون، فهي كلمة استعانة، كلمة تَطْلُب بقولها من ربك أن يُعينك؛ أن يُمِدَّك، ويؤتىٰ بها بين يدي الأعمال العظام، وما يقوم به الإنسان من مصالح دينية ودنيوية، ولهٰذا شُرع للمسلم إذا خرج من بيته في كل مرة لمصلحة دينية أو دنيوية أن يقول: باسم الله توكلت علىٰ الله لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا قالها قيل له: هُديت وكُفيت ووُقيت.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ اللِّسَانُ وَتَصَوَّرَهُ الْقَلْبُ مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ مِنْ تَعَلُّمِ عِلْمٍ وَتَعْلِيمِهِ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ، فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ.

وَلِهٰذا مَنْ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ بَعْدَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، أَوْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَتَفَقَّهُ أَوْ يُفَقِّهُ فِيهِ الْفِقْهَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فِقْهًا، فَهٰذا أَيْضًا مِنْ أَفْضَلِ ذِكْرِ اللهِ.

وَعَلَىٰ ذَلِكَ إِذَا تَدَبَّرْتَ لَمْ تَجِدْ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ فِي كَلِمَاتِهِمْ فِي أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ كَبِيرَ اخْتِلَافٍ.

ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن العناية بالعلم الشرعي، والتفقه في دين الله، ومعرفة الحلال والحرام والأحكام، وأيضًا العناية بـ«الفقه الأكبر»: الذي هو معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومعرفة أسمائه وصفاته وما يجب نحوه من اعتقاد وإيمان، وكذلكم ما يتعلق بأصول الإيمان، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام -لمَّا سأله جبريل عن الإيمان- قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره» اشتغال العبد بالتفقه والتعلُّم ومعرفة هٰذه الأصول والأركان والواجبات التي افترضها الله عليه ومعرفة الحلال والحرام والأحكام، هٰذا كله داخل في الذِّكر، وهو من جملة ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ اللِّسَانُ وَتَصَوَّرَهُ الْقَلْبُ مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ مِنْ تَعَلُّمِ عِلْمٍ وَتَعْلِيمِهِ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ، فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ) إذن ذِكرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس منحصرًا في مفهومه العام بالتسبيح والتهليل والتحميد ونحو ذلكم من الأذكار، بل يشمل:

- ذكر الله عَزَّوَجَلَّ بمعرفة أسمائه وصفاته.
- ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتفقُّه في دينه.
- ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمعرفة الحلال والحرام والأحكام.

وقريبًا مرَّ معنا قصة أبي السُّوَّار العدوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا أحد الشباب في مجلسه قال: اذكروا الله، قال: نحن في ماذا منذ اليوم؟! أي أن هٰذه المجالس، مجالس الحلال والحرام والأحكام، هي من إقامة الذِّكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (وَلِهٰذا مَنْ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ بَعْدَ آدَاءِ الْفَرَائِضِ، أَوْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَتَفَقَّهُ أو يُفَقِّهُ فِيهِ الْفِقْهَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فِقْهًا) مثل قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾

[التوبة:١٢٢] ومثل قول النبي عليه الصلاة والسلام: «من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» فقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فِقْهًا) أي: تفقُّهًا في دين الله، ودين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

- يشمل العقائد.

- ويشمل العبادات.

- ويشمل كمال الدين بحسن التقرب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما هو موضح هٰذا المعنىٰ في حديث جبريل المشهور لمَّا ذكر الإسلام عليه الصلاة والسلام مُعرِّفًا له، ثم ذكر الإيمان عليه الصلاة والسلام مُعرِّفًا له، ثم ذكر الإحسان مُعرِّفًا له، ثم قال في تمام الحديث: «هٰذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» فالعقيدة والعبادة كلها؛ الفقه فيها من الفقه في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (فَهٰذَا أَيْضًا مِنْ أَفْضَلِ ذِكْرِ اللهِ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ إِذَا تَدَبَّرتْ لَمْ تَجِدْ بَيْنَ الأَوَّلِينَ فِي كَلِمَاتِهِم فِي أَفْضَلِ الأَعْمَالِ كَبِيرَ اخْتِلَافٍ) يعني: إذا نظرت في أقوال أهل العلم فيما هو الأفضل بعد النوافل تجد أن الخلاف في ذلكم خلاف تنوع، يعني: كل يشير أو يجيب سائلًا بما يتناسب مع حاله، يأتيه سائل ويقول: ما الأفضل؟ يقول: اطلب العلم، لأنه يرىٰ فيه هِمة مثلًا في الطلب إلىٰ آخر ذلك، يجد آخر مجال آخر فيرشده إليه ويقول الأفضل لك كذا، إذًا ليس بينهم خلاف لأنهم راعَوا مثل هٰذا التقعيد الذي أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

ثم إنني أيها الإخوة الكرام أختم هٰذا المجلس ببشارة، أبشركم بها وهي، وإن كان صاحب البشارة لا يرضىٰ ذلك مني، لكن طالما أنه لا يُعرف ولا يُدرىٰ من هو، أسوق لكم هٰذه البشارة التي ذكرها لي وأدخل علىٰ قلبي قبل الدرس سرورًا عظيمًا وأُدخلهُ أيضًا علىٰ قلوبكم جميعًا؛

يقول: لمَّا انتهينا من الدرس بالأمس ووقفت علىٰ كلام شيخ الإسلام في جماع الخير في باب الأخلاق والآداب وأن جماع الخير في كظم الغيظ والعفو عن الناس، يقول: خرجت من الدرس وأنا في نفسي أشياء كثيرة علىٰ أناس ظلموني، يقول: حاولت مع نفسي أن أعفو عنهم ما استطعت، وجاهدت نفسي أن أعفو عنهم فما استطعت، حاولت ذلك لم أستطع، يقول: وأنا مُصِرّ إلا أن أعفو عنهم لكن ما استطعت، يقول: فقمت الليل، وصليت في آخر الليل ما كتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لي من صلاة ودعوت الله جل وعلا واستجاب لي بذلك وعفوت عنهم.

المجلس الخامس

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في وصيته:

وَمَا اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلىٰ العَبْدِ فَعَلَيْه بالاسْتِخَارَةِ المَشْرُوعَةِ فَمَا نَدِمَ مَن اسْتَخَارَ الله تَعَالىٰ. وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذَلِكَ وَمِنَ الدُّعَاءِ، فَإِنَّه مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ، وَلَا يَعجل، فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي، وَلْيَتَحَرَّ الأَوْقَاتَ الفَاضِلَة: كَآخِرِ اللَّيلِ وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ، وَعِنْدَ الأَذَانِ، وَوَقْتِ نُزُولِ المَطَرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد؛ يبيِّن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في هٰذا الموضع أهمية الاستخارة، وعِظم شأنها، وكِبر عائدتها، وشدة حاجة العبد إليها، وهي مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ أمة الإسلام، أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه عِوَضًا وكرامةً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم عمَّا كان عليه أهل الجاهلية من الاستقسام بالأزلام والتشاؤم بالطيور وزجرها، فإذا أراد الواحد منهم سفرًا أو زواجًا أو تجارة أو غير ذلكم زجر الطير ثم بنىٰ علىٰ زجره لها؛ إما الإقدام أو الإحجام؛ فأكرم الله عَزَّوَجَلَّ أمة الإسلام؛ أمة محمد عليه الصلاة والسلام بالعافية والسلامة من هٰذه الأباطيل، وعوَّضهم بهٰذه الاستخارة العظيمة، عندما يشتبه علىٰ المسلم أمرٌ من الأمور، لا يتبين له فيه المصلحة من المفسدة، أو الإقدام من الإحجام، أو الفعل من الترك، فيكون الأمر مُشتبهًا عليه في مثل هٰذه الحال، ففي مِثلِ هٰذه الحال تُشرع الاستخارة، ولهٰذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمَا اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلىٰ العَبْدِ) أما الأمور الواضحات لا استخارة فيها، واجبات الدين وفرائض الإسلام والمحرمات هٰذه كلها لا استخارة فيها؛ يجب علىٰ الإنسان أن يبادر ويسارع إلىٰ الفرائض والواجبات، وكذلكم يجب عليه البعد واجتناب المحرمات والآثام، فالواجب والمحرم والأمور الواضحة البينة ليس فيها استخارة، لكن إذا اشتبه علىٰ الإنسان عمل من الأعمال أو تجارة من التجارات أو مصلحة من المصالح أو نحو ذلكم وتحرَّىٰ في ذلكم وتفقه وتبصر، ففي مثل هٰذه الحالة -حالة اشتباه الأمر- تُشرع الاستخارة، قال: (وَمَا اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلىٰ العَبْدِ فَعَلَيْه بالاسْتِخَارَةِ المَشْرُوعَةِ) قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بالاسْتِخَارَةِ المَشْرُوعَةِ) فيه التحذير ممَّا قد يوجد من ألفاظ بِدعية أو طرائق مُحدثة لا أصل لها في شرع الله تبارك وتعالىٰ تُصنع أو تُفعل عندما يشتبه علىٰ الإنسان أمر من الأمور أو لا يترجَّح عنده شيء، فكُلُّ أمرٍ لا أصل له في الشرع: الواجب علىٰ العبد أن

يحذر منه، وفي شرع الله ﷻ غُنيةٌ وكفاية.

قال: (فَعَلَيْه بالاسْتِخَارَةِ المَشْرُوعَةِ فَمَا نَدِمَ مَن اسْتَخَارَ الله) أي: لم يكن من أهل الندامة مَنْ طلب من الله ﷻ الخِيَرة؛ ولجأ إلىٰ الله ﷻ مؤمنًا بعلم الله الذي وَسِع كل شيء، وقُدرة الله ﷻ التي شملت كل شيء، وأن الأمر بيده، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ففوَّض أمره إلىٰ الله ﷻ طالبًا منه الخِيَرة، لا يندم من يستخير الله ﷻ، ويستشير أهل الفضل والنُّبل والعلم والدراية، ولهٰذا يقال: «ما ندم من استخار، وما خاب من استشار» ففي مثل هٰذه المقامات يحتاج العبد إلىٰ هذين الأمرين معًا:

١- استخارة الله ﷷ في طلب الخِيَرة منه جل وعلا.

٢- واستشارة أهل الرأي والعلم والدراية والفهم.

فإنَّ المُستخير لا يندم، والمُستشير لأهل الدراية والبصيرة لا يخِيب بإذن الله تبارك وتعالىٰ، لأن الله ﷷ حث عباده علىٰ الشورىٰ والتشاور ولاسيما في الأمور التي تشتبه علىٰ الإنسان، وسيأتي حديث لاحق لشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ مرة ثانية عن الاستخارة وأهميتها وحاجة العبد إليها عندما تكلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عن المكاسب.

والاستخارة ورد فيها حديث صحيح، خرَّجه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: (كان رسول الله ﷺ يُعلِّمُنا الاستخارة في الأمور كلها كما يُعلِّمُنا السورة من القرآن) وهٰذا أيضًا فيه تنبيه إلىٰ أهمية حِفظ ألفاظ الاستخارة كما جاءت، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يعلمهم الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن، الذي يُخطئ في حرف أو في كلمة من سورة من سور القرآن يُصحَّح له، فكذلكم ألفاظ الاستخارة؛ كان عليه الصلاة والسلام يعلمها أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: (**إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة**) ولو كانت تحية المسجد أو النوافل الراتبة القبلية أو البعدية للصلوات أو أنشأ صلاة نافلة للاستخارة، المهم أن تكون من غير الفريضة، يصلي ركعتين من غير الفريضة التي كتبها الله ﷻ عليه، ولم يَرِد في طرق الحديث ورواياته تعيين قراءة لكل ركعة من هاتين الركعتين، فيقرأ ما تيسر من القرآن الكريم، قال: (**ثم ليقل: اللّٰهمَّ إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللّٰهمَّ إن كنت تعلم أن هٰذا الأمر -ويُسمِّي الأمر الذي**

استخار لأجله: زواجًا، تجارة، سفرًا إلىٰ غير ذلك- **اللَّهمَّ إن كنت تعلم أن هٰذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري -أو قال: عاجل أمري وآجله- فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هٰذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري -أو قال: عاجل أمري وآجله- فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر الخير حيث كان، ثم رضني به**) قال: (ويُسمِّي حاجته) مثل ما أشرت زواجًا أو تجارةً أو سفرًا أو غير ذلك.

والاستخارة شأنها عظيم، وعائدتها علىٰ عبد الله المؤمن عظيمة جدًّا، فإنَّ من يستخير الله مُفوِّضًا أمره إلىٰ الله طالبًا مدده وعونه وتوفيقه وتسديده من الله، فإنّه لا يندم ولا يخيب بإذن الله تبارك وتعالىٰ.

قال: (وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذَلِكَ وَمِنَ الدُّعَاءِ) « وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذَلِكَ » يعني: كل ما عَنَّ له أمر؛ اشتبه عليه؛ لم تتبين له الحال فيه، فليستخير الله ﷻ، (وَلْيُكْثِرْ.. مِنَ الدُّعَاءِ) يعني: دومًا يسأل الله تبارك وتعالىٰ الهداية، التوفيق، السداد، صلاح الدين، صلاح الدنيا، صلاح الآخرة، صلاح شأنه كله، يكثر من الدعاء لأن الدعاء كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ).

قال: (وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذَلِكَ وَمِنَ الدُّعَاءِ، فَإِنَّه) أي: الدعاء (مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ) لماذا كان الدعاء مفتاح كل خير؟ تأمل كلمة عظيمة تُجلِّي هٰذا الأمر للإمام: مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير -أحد أئمة التابعين- رواه عنه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الزهد» قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تذكرت ما جماع الخير؛ فإذا الخير كثير، الصلاة، والصوم، وإذا هو في يد الله عَزَّ وَجَلَّ -يعني: لا تستطيع أن تصلي إلا إذا أعانك الله، لا تستطيع أن تصوم إلا إذا أعانك الله، لا تستطيع أن تقوم بشيء من أبواب البر وأنواع الطاعات إلا إذا أعانك الله ﷻ- قال: فإذا الخير كثير الصوم والصلاة، وإذا هو في يد الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا أنت لا تقدر علىٰ ما في يد الله عَزَّ وَجَلَّ إلا أن تسأله فيعطيك، فإذا جماع الخير الدعاء».

ولهٰذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (فَإِنَّه مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ) فأي خير تريده لنفسك؟! في دينك، في دنياك، في أُخراك، فعليك بهٰذا المفتاح، وهو: الدعاء؛ اللجوء إلىٰ الله ﷻ؛ سؤال الله الذي بيده جل شأنه أزِمَّة الأمور؛ بيده الخفض والرفع والقبض والبسط والعطاء والمنع والعز والذل والحياة والموت والهداية والضلال، كل شيء بيد الله ﷻ، ولا يمكن أن تظفر بشيء من الخير إلا إذا يسَّره الله لك.

ولـ«مُطَرِّف» رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمة أخرىٰ في المعنىٰ نفسه عجيبة، قال فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لو أن قلبي أُخرج ووُضع في

شمالي، وجيء بالخيرات كلها ووضعت في يميني، لم أستطع أن أُوْلِج شيئًا منها في قلبي إلا أن يكون الله هو الذي يضعه).

الأمور كلها بيد الله ﷻ، هو: المعطي المانع الخافض الرافع القابض الباسط المُعز المذل، الذي بيده كل شيء ﷻ، فالدعاء مفتاح كل خير، ولهٰذا ينبغي علىٰ المسلم أن يكون دائمًا يُكثر الدعاء، ويُكثر السؤال، والله ﷻ يحب من عبده أن يسأله، وإذا ترك العبد السؤال غضب الله عليه، ففي الحديث «من لم يسأل الله يغضب عليه» وفي الحديث «ليس شيء أكرم علىٰ الله من الدعاء» و«الدعاء هو العبادة» كما قال صلوات الله وسلامه عليه.

فإذن يُستحب للمسلم أن يكثر من الدعاء، ومَنْ أُعطي الدعاء أعطي الإجابة، لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر:٦٠] ولهٰذا كان عمر رضي الله عنه يقول: «لا أحمل هم الإجابة، ولكن أحمل هم الدعاء».

ومن يتأمَّل في واقعه مع الأمور؛ تمر عليه أشياء مهمة يحتاج إليها في دينه وفي دنياه وفي تقرُّبه إلىٰ الله ﷻ، ويعرف أنه محتاج إليها، وحاجته إليها شديدة، ويعرف أن كل الأمور بيد الله، لكننا نضعف كثيرًا في الدعاء وفي الإلحاح علىٰ الله وفي السؤال وفي الطلب.

قال: (فَإِنَّه مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ، وَلَا يَعْجَل) ما معنىٰ (لَا يَعْجَل)؟ قال: (فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي) قد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل» والعجلة أن الإنسان يدعو مرة مرتين ثلاث ثم يقول دعوت فلم يستجب لي، وتأمل في دعاء الأبرار في خواتيم سورة آل عمران، ذكر الله ﷻ إلحاحهم علىٰ الله، وتكرار السؤال: رَبَّنَا رَبَّنَا رَبَّنَا رَبَّنَا تكررت سبع مرات، ثم قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران:١٩٥] أخذ منها أهل العلم أن المُلِحّ علىٰ الله والمُكْثِر من دعاء الله ومناجاة الله ﷻ حَرِيٌّ بالإجابة، فمن أسباب إجابة الدعاء: الإلحاح علىٰ الله، وإكثار طرق الباب، والإكثار من السؤال، والالتجاء إلىٰ الله ﷻ، لا أن يدعو مرة أو مرتين أو ثلاث ثم يقول: دعوت فلم يستجب لي.

قال: (وَلْيَتَحَرَّ الأَوْقَات الفَاضِلة: كَآخِرِ اللَّيلِ) وهٰذا الوقت الذي أشار إليه شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ هو أحرىٰ أوقات الإجابة، الثلث الأخير من الليل، ففي «الصحيحين» وغيرهما أن النبي عليه الصلاة

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

والسلام قال: «ينزل ربُّنا إلىٰ سماء الدنيا كُلَّ ليلة في ثلث الليل الآخر فيقول: مَنْ يسألني فأعطيه، مَنْ يدعوني فأستجيب له، مَنْ يستغفرني فأغفر له»، وهٰذا وقت شريف للغاية، والله جل وعلا يقول: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾ [آل عمران]، ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات] وقت شريف للغاية، وهو أرجىٰ أوقات الإجابة، لكن هٰذا الوقت الشريف الفاضل الكريم المبارك ضاع عند أكثرنا بسبب السهر الذي بُلينا به في هٰذا الزمان، وقد نهىٰ عليه الصلاة والسلام عن السمر بعد هدأة الليل، فلما بُلينا في زماننا هٰذا بكثرة السهر، وإطالة السهر إلىٰ الثانية عشر إلىٰ الواحدة ثم ينام الإنسان، كيف يستطيع أن يقوم؟ بل من كانت هٰذه حاله يُقال في شأنه: نسأل الله أن يُسلِّم صلاة الفجر، تُضيَّع الآن، تُضيَّع صلاة الفجر كثيرًا حتىٰ عند من هو يُنظر إليه بالصلاح أو التديُّن أو الاستقامة؛ تفوته صلاة الفجر في الأسبوع مرة مرتين ثلاث، هٰذه مصيبة عظيمة جدًّا، وتفريط وإضاعة، فهٰذا الوقت الشريف الفاضل ضاع، وأيضًا لمَّا جاءت هٰذه الأجهزة التي أيضًا بُلينا بها في هٰذا الزمان؛ يسمر أمامها الناس، يشاهدون وينظرون ثم تثقل رؤوسهم عن صلاة الفجر فضلًا عن قيام الليل أو الدعاء واللجوء إلىٰ الله ﷻ في هٰذا الوقت العظيم الشريف الفاضل، وإلا هو وقت أثمن ما يكون، ينزل ربنا إلىٰ سماء الدنيا كل ليلة، في ثلث الليل الآخر، يقول: من يسألني؟ من يدعوني؟ من يستغفرني؟.

وإذا تأمَّل الإنسان في واقعه يجد أنه حقيقة حَرَمَ نفسه من خير عظيم؛ بل أصبح الآن من الناس من هو في هٰذا الوقت الفاضل الشريف مُستمرًا في سهره علىٰ لهو وباطل، حتىٰ في وقت النزول الإلهي، حتىٰ في وقت الاستغفار، تجده إما علىٰ لعب أو علىٰ مشهادات محرمة أو علىٰ مجالس باطلة أو لهو أو غير ذلك إلىٰ أن يصبح الصبح، فيقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (وَلْيَتَحَرَّ الأوْقَات الفَاضِلة) وبدأ بآخر الليل، قال: (كآخِرِ اللَّيلِ) بدأ به وقدَّمه علىٰ غيره لأنه أرجىٰ أوقات الإجابة، فوقت فاضل، وفيه النزول الإلهي وقول الرب ﷻ في الحديث: لا أسأل عن عبادي أحدًا غيري، من يسألني؟ من يدعوني؟ من يستغفرني؟ فوقت ثمين للغاية للدعاء.

* وبمناسبة هٰذا الوقت أُتم قصة الأمس، الأخ الذي قلت لكم أنه حاول أن يعفو وأن يُبيح الذين ظلموه، يقول: «ما استطعت» فقمت في ثلث الليل الآخر وأخذت أصلي وأدعو الله ﷻ وأُلِحُّ علىٰ الله جل شأنه في الدعاء، يقول: وفجأة وجدت صدري منشرحًا تمامًا للعفو، وأخذت في جُنْحِ الليل وفي ثلث

الليل الآخر أعفو عمَّن ظلمني، فلان وفلان يقول: أُسميهم بأسمائهم.

وكثير من الناس يجد إذا أكرمه الله ﷻ بالعناية بهٰذا الوقت، والقيام في ذلك الوقت والمناجاة والإلحاح علىٰ الله ﷻ يرىٰ من الآثار والثمار عجبًا.

وأذكر أحد الأفاضل من الدعاة، مشتغلًا بالدعوة إلىٰ الله في بلده، ودعوته إلىٰ الله كما ذكر لي دعوة فردية، يعني يقول: دائما لا أدعو إلا شخصًا وحده، أجده جالس فأجلس معه وأدعوه إلىٰ الإسلام، وأسلم عليه عدد كبير جدًّا، يقول -في مجلس خاص معه يحدثني-: أقوم ولله الحمد ساعة في ثلث الليل الآخر، أُصلي ما كتب الله لي، أقرأ ما كتب الله لي، ثم أدعو الله وأقول في دعائي: اللّٰهمَّ يا رب أخرج علىٰ يدي من النار، يا رب أخرج علىٰ يدي أشخاصًا من النار، يا رب أنقِذ علىٰ يدي أشخاصًا من النار، يقول: أُلِحّ علىٰ الله بهٰذا الأمر، ثم يقول لي بهٰذا اللفظ: والله ﷻ كريم، يقول: إذا أصبحت يعطيني، اثنين يعطيني ثلاثة، يعطيني أربعة، يقول: ما يردني. يقول: الله كريم، ما يردني؛ أبدًا أنا أطلب منه في الثلث الأخير، يقول: إذا أصبحت، يعطيني اثنين يعطيني ثلاثة يعطيني أربعة، يقول: ما يردني.

قال: (كَآخِرِ اللَّيلِ وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ، وَعِنْدَ الأَذَانِ) «أدبار الصلوات» سُئل كما جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام: أي الدعاء أسمع؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «في جوف الليل وأدبار الصلوات المكتوبة» ودُبر الصلاة المكتوبة وقت عظيم للدعاء والأرجح أن المراد بـ«دبر الصلاة» فيما يتعلق بالدعاء قبل السلام علىٰ ما حققه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من أهل العلم، فقبل أن يسلم يدعو الله ﷻ بما يتيسَّر له ولاسيما الدعوات الجوامع المأثورة عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

قال: (وَعِنْدَ الأَذَانِ) وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « ثنتان لا تردان: الدعاء عند الأذان وتحت المطر» وكذلك بين الأذان والإقامة، قال: (وَعِنْدَ الأَذَانِ، وَوَقْتِ نُزُولِ المَطَرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ) أي نحو ذلك من الأوقات الفاضلة التي ورد في السنة تحرِّي الدعاء فيها، مثل: الساعة التي في يوم الجمعة، ويوم عرفة، وغير ذلكم من الأوقات أو الأحوال الفاضلة.

الشاهد أن المسلم ينبغي عليه أن يُكثر من الدعاء وسؤال الله تبارك وتعالىٰ في جميع مصالحه الدينية والدنيوية والأخروية، كما في الحديث الجامع وهو في «صحيح مسلم»: «اللّٰهمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة

لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر» لا يمكن أن تَصْلُح دنياك ولا يمكن أن تَصْـلُح أُخـراك ولا يمكن أن يَصْلُح دينك إلا إذا أصلح الله لك ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

وَأمَّا أَرْجحُ المَكَاسِب: فَالتَّوَكُّل عَلَىٰ الله، وَالثِّقةُ بِكِفَايَتِهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِـهِ. وَذَلِـكَ أَنَّـهُ يَنْبَغِـي لِلْمُهْـتَمِّ بِأَمْرِ الرِّزْقِ؛ أَنْ يَلْجَأَ فِيهِ إِلىٰ الله وَيَدْعُوَهُ، كَمَا قَـالَ سُـبْحَانَهُ فِيمَـا يَـأْثُر عَنْـهُ نَبِيُّـهُ: «كُلُّكُـمْ جَـائِعٌ، إِلَّا مَـنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي، أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُـكُمْ» وَفِيمَـا رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ عَنْ أَنَس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَـا، حَتَّـىٰ شِسْـعِ نَعْلِـهِ إِذَا انْقَطَعَ، فَإِنَّه إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ».

وَقَدْ قَالَ الله تَعَـالىٰ فِـي كِتَابِـهِ: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [النسـاء:٣٢] وقَـالَ سُـبْحَانَه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠]، وَهٰذا وَإِنْ كَانَ فِي الجُمُعَةِ، فَمَعْنَاهُ قَـائِمٌ فِـي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ.

وَلِهٰذا -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَمَرَ النبيُّ ﷺ الَّذِي يَدْخُلُ المَسْجِدَ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ افْـتَحْ لِـي أَبْـوَابَ رَحْمَتِـكَ» وَإِذَا خَرَجَ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُـمَّ إِنِّـي أَسْـأَلُكَ مِـنْ فَضْـلِكَ»، وَقَـدْ قَـالَ الخَلِيـلُ ﷺ: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت:١٧] وَهٰذا أَمْرٌ، وَالأمْرُ يَقْتَضِي الإِيجَابَ. فالاسْتِعَانَةُ بالله واللَّجَأُ إِلَيْه فِي أَمْرِ الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ أَصْلٌ عَظِيمٌ.

ثم انتقل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ للإجابة علىٰ طلب السـائل: أبـو القاسـم السِّـبتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعـالىٰ، وكان ممَّا طلب مـن شـيخ الإسـلام: أنْ يُبيِّنَ لـه أرجـح المكاسـب، فأجابـه هنـا بقولـه: (وَأَمَّـا أَرْجَـحُ المَكَاسِب) انظر الإمامة؛ إمامة شيخ الإسلام وجمال النصح والبيان، هٰذا السؤال لو طُرح علىٰ كثير مِنَّـا، جاء سائل وقائل: أريد أن تدلَّني علىٰ أرجح المكاسب؛ ومـا هـي التِّجـارات الآن الرابحـة؟ العقـار وإلا مثلًا البيع في السوق؛ ما هي أرجح المكاسب؟ تجد الذهن مباشـرة مُنصـبٌّ للتجـارة نفسـها، يقـول: أنـا أنصحك بالعقار، العقار هو الذي الآن سوقه كـذا، أو مـثلًا يقـول لـه: لا، أنـا أنصـحك الآن تتجـه إلـىٰ الخُضَر أو تتجه إلىٰ...، لكن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (وَأَمَّا أَرْجَحُ المَكَاسِب: فَالتَّوَكُّلُ عَلَىٰ الله) هٰذه إمامة في الدِّين، ونُصح ودعوة إلىٰ التوكل علىٰ الله، والثقة بالله والالتجاء إلىٰ الله ﷻ، فمثـل هٰـذا النُّصـح عنـدما يسمعه مَنْ يدخل في تجارة أو يدخل في صناعة أو يدخل في عمل، يدخل وهو مستصحبًا التوكل علىٰ الله، بخلاف ما إذا وُجِّه إلىٰ تجارةٍ ما ولم يُنبَّه علىٰ مقام التوكُّل والتفـويض والالتجـاء إلـىٰ الله، يـدخل هٰـذا

العمل وربَّما لا يكون التوكُّل حاضرًا عنده ولا يكون مُستصحبًا له، فانظر هٰذه الإمامة وهٰذا النصح.

قال: (وَأمَّا أَرْجَحُ المَكَاسِب: فَالتَّوَكُّل عَلَىٰ الله، وَالثِّقَةُ بِكِفَايَتِهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ) «التوكل علىٰ الله»: أي تفويض الأمر إلىٰ الله، أي في أي عمل تقوم به من عمل ديني أو دنيوي أو تجارة أو عمل أو غير ذلك فأنت بحاجة إلىٰ التوكل، ولهٰذا التوكل عبادة قلبية تَصْحَب المؤمن الصَّادق في جميع أموره بدون استثناء، إذا كنت تريد أن تصلي لابد أن تتوكل علىٰ الله، الصيام، الصدقة، البر، الإحسان، البيع، الشراء، إلىٰ غير ذلكم، كل عمل من أعمالك لابد أن تستصحب فيه التوكُّل، فالتوكل: عبادة قلبية تصحب المؤمن في أعماله وأموره كلها الدينية منها والدنيوية.

قال: (وَأمَّا أَرْجَحُ المَكَاسِب: فَالتَّوَكُّل عَلَىٰ الله، وَالثِّقَةُ بِكِفَايَتِهِ) الثقة: هي خُلاصة التوكل ولُبُّ التوكل، ولا تكون الثقة إلا بالله ﷻ، بحيث يلجأ العبد في أموره الدينية أو الدنيوية لجوءًا كاملًا إلىٰ الله ﷻ ثقة به جل وعلا ؛ أن يوفقه؛ أن يسدده، أن يعينه، أن يلهمه الصواب، أن يجنبه الزلل، فالثقة لا تكون إلا بالله.

ولهٰذا من الأخطاء الشائعة في زماننا: الدعوة إلىٰ الثقة بالنفس، ولهٰذا تجد بعضهم يخاطب بعضًا يقول: «ليكن عندك ثقة بنفسك!» أو مثلًا يلومه في شيء؛ يقول: «أنت ما عندك ثقة بنفسك!» كيف يثق الإنسان بنفسه وفي الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام: «اللّٰهمَّ رحمتك أرجو فلا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إلٰه إلا أنت»؟ هٰذه دعوة ثابتة تُقال في الكرب، فكيف تكون الثقة بالنفس وأنت في دعائك تقول: «اللّٰهمَّ لا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين»؟ فالثقة بالله ليست بالنفس، نَعَمْ العبد يبذل السبب المشروع المباح لكن لا تكون ثقته لا بنفسه ولا بالسبب الذي بذله، وإنما تكون ثقته بربه ﷻ أن يوفقه، أن يسدده، أن يلهمه الصواب، ولهٰذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَالتَّوَكُّل عَلَىٰ الله، وَالثِّقَةُ بِكِفَايَتِهِ)، والله جل وعلا يقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، ويقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه، قال: (وَالثِّقَةُ بِكِفَايَتِهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ) وفي الحديث يقول الله ﷻ: «أنا عند ظن عبدي بي» فينبغي علىٰ الإنسان إذا دخل في أعمال أو في مصالح وأمور نافعة أن يُحسن الظن بالله: أن يسدده وأن يعينه وأن يوفقه، وألا يستولي عليه يأس أو قنوط أو نحو ذلك، قال: (وَذَلِكَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُهْتَمِّ بِأَمْرِ الرِّزْقِ؛ أَنْ يَلْجَأَ فِيهِ إِلَىٰ الله وَيَدْعُوهُ) (يَلْجَأَ فِيهِ إِلَىٰ الله) أي: في تحصيل الرزق

واكتسابه إلىٰ الله بأن يوفقه الله ﷻ، وسيأتي معنا قول الله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ [العنكبوت:١٧] ويقول جل وعلا: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات] فالرزق بيد الله، ومن أسمائه جل شأنه «الـرَّزَّاق» أي الذي بيده الرزق، فـ(يَلْجَأ فِيهِ إلىٰ الله وَيَدْعُوهُ) أي يدعو الله ﷻ أن يرزقه، ومن أفضل أوقات الدعاء -دعاء الله ﷻ بالرزق الطيب-: الصباح الباكر بعد صلاة الفجر، وقد ثبت في السنن عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه كل يوم يقول بعد صلاة الصبح بعد أن يسلم: «اللّٰهمَّ إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقا طيبًا، وعملًا مُتقبلًا» يدعو بهٰذه الثلاث الدعوات يوميًا بعد صلاة الصبح، لماذا؟ لأن الصُّبح هو باكورة اليوم، وفي الحديث الآخر قال: «بُورك لأمتي في بُكورها» فهو وقت مبارك، ووقت قسم الأرزاق وحلول البركات، ومَنْ وفقه الله ﷻ للإمساك بزمام اليوم، وزمام اليوم: هو الصباح الباكر؛ لجوءًا إلىٰ الله؛ ودعاءً وسؤالًا وذكرًا لله ﷻ، فإن هٰذا من أمارات وعلامات التوفيق والتيسير في يومه، علمًا وعملًا ورزقًا، ولهٰذا كان عليه الصلاة والسلام يدعو كُلَّ يوم إذا أصبح بهٰذه الدعوات الثلاث.

وإذا تأمَّلت أيها المؤمن الموفَّق في هٰذه الدعوات الثلاث تجد أنها هي: أهداف المسلم في يومه، لو قيل لك: ما هي أهداف المسلم في يومه؟ تأمَّل معي، هل تجد له هدفًا زائدًا علىٰ هٰذه الأهداف الثلاثة؟ جمعت أهداف المسلم كلها، جمعت أهدافه كلها في يومه، المسلم ليس له في يومه إلا ثلاثة أهداف: علم نافع، ورزق طيب، وعمل متقبل.

فأول ما يُصبح المسلم ويبدأ اليوم يستحضر هٰذه الأهداف، أهدافه في يومه، ثم يطلب من الله جل شأنه أن يعينه علىٰ تحقيق هٰذه الأهداف، وتحقيق هٰذه المطالب والمقاصد التي يريدها أن تتحقق له في يومه، فيبدأ يومه بالسؤال: «اللّٰهمَّ إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقا طيبًا، وعملًا مُتقبلًا»، ثم كما قال أهل العلم يُتْبِع الدعاء ببذل السبب، وهكذا الشأن في جميع الأدعية، المطلوب من المسلم إذا دعا الله ﷻ بحاجة من الحاجات أن يُتْبِع الدعاء ببذل السبب فيما طلبه من حاجة دينية أو دنيوية، ولهٰذا لو أن إنسانًا أصبح ودعا بهٰذه الدعوة: «اللّٰهمَّ إني أسألك علمًا نافعًا» وبعدما دعىٰ بهٰذه الدعوة مباشرة سحب الوسادة ونام إلىٰ الظهر، ما يأتيه العلم في فراشه، لكن يقول: «اللّٰهمَّ إني أسألك علمًا نافعًا» ثم يُمسك كتاب الله ويبدأ يحفظ أو يذهب إلىٰ حلقة علم أو يستمع؛ يقرأ كتابًا أو غير ذلك، يبذل السبب فيَمُن الله ﷻ عليه بالعلم.

أيضًا: أبواب الرزق، يسأل الله الرزق الطيب ثم يمشي سعيًا في طلب الرزق، فيهيئ الله ﷻ له من أبواب البر والرزق والتوفيق، فيجمع بين الأمرين اللّذين ذكرهما النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله».

الشاهد أن المسلم في هٰذا المقام كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: عليه أن يدعو الله ويكثر من الدعاء (كَمَا قَالَ سبحانه فِيمَا يَأْثُرُ عَنْهُ نَبِيُّهُ) أي في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي، أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ) أي: اطلبوا مني الطعام والشراب والكسوة والغذاء وغير ذلكم، كل ذلكم يُطلب من الله ﷻ، قال: (وَفِيمَا رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ عَنْ أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّىٰ شِسْعِ نَعْلِهِ») يعني لو انقطع شسع النعل وسير النعل فليسأل الله ﷻ أن ييسر له صلاحه (حَتَّىٰ شِسْعِ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ، فَإِنَّه إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ) لأنَّ التيسير بيد الله ﷻ، وفي الدعاء: «اللّٰهمَّ لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحزن إذا ما شئت سهلا».

قال: (وَقَدْ قَالَ الله تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢])، وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: يتناول الفضل الديني والفضل الدنيوي، فجميع حاجات الإنسان الدينية والدنيوية وجميع مطالبه يسألها من الرب العظيم الذي بيده جل شأنه كُلّ شيء.

قال: (﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢]، وقَالَ سُبْحَانَه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠]) لاحظ جاء بالآية الأولىٰ فيها السؤال، وجاء بالآية الثانية فيها بذل السبب، وكأنّه رَحِمَهُ اللَّهُ ينبه بذلك أن تجمع بين الأمرين: السؤال، وبذل السبب، تجمع بين الأمرين:

١- سؤال الله ﷻ من فضله، كما تدلّ عليه الآية الكريمة: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢].

٢- ثم تُتبع الدعاء والسؤال ببذل السبب، كما يدل عليه قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠]، يعني ابذلوا الأسباب ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥] لا أن يبقىٰ الإنسان في مكانه ولا يبذل السبب، في الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «لو توكلتم علىٰ الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا، وتروح بطانًا» الطير تبذل السبب، لا تبقىٰ في عُشّها،

فالطير إذا أصبحت جائعة تغدو وتذهب المسافات الطويلة تبحث عن الطعام وتبحث عن الشراب وترجع، قال: «لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا» أي تذهب جائعة وترجع شَبِعة، بمعنىٰ أن الإنسان من تمام توكله علىٰ الله ﷻ أن يبذل السبب كما أمره الله ﷻ بذلك.

قال: (وَهٰذا وَإِنْ كَانَ فِي الجُمُعَةِ، فَمَعْنَاهُ قَائِمٌ فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ) بمعنىٰ: أن الإنسان يسأل الله ﷻ من فضله، ثم يبحث عن أبواب الرزق، وما ييسره الله ﷻ له من ذلك، يقول شيخ الإسلام: (وَلِهٰذا - وَالله أَعْلَمُ- أَمَرَ النبيُّ ﷺ الَّذِي يَدْخُلُ المَسْجِدَ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ») لأنه داخل للمسجد، للصلاة والعبادة والذكر لينال بذلك رحمة الله ﷻ، (وَإِذَا خَرَجَ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ») فإذا خرج الإنسان من المسجد أمامه أبواب من أبواب الرزق فيسأل الله ﷻ من فضله أن ييسر له جل شأنه الرزق الطيب.

قال: (وَإِذَا خَرَجَ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»، وَقَدْ قَالَ الخَلِيلُ ﷺ) أي إبراهيم عليه السلام(﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت:١٧]) ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: عنده لا عند غيره ﷻ، باللُّجوء إليه وحده، وبسؤاله وحده، والالتجاء إليه ﷻ وحده.

قال: (وَهٰذا أَمْرٌ) يعني في قوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ (وَالأَمْرُ يَقْتَضِي الإِيجَابَ، فالاسْتِعَانَةُ بالله و اللَّجَأُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ أَصْلٌ عَظِيمٌ) بمعنىٰ أنه يجب علىٰ المسلم أن يكون لجوءه في طلبه للرزق وحاجاته ومصالحه إلىٰ الله ﷻ وحده، عليه يتوكل وإليه يلتجئ، ومنه ﷻ يطلب المدد والعون والتوفيق والتيسير.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافٍ وَهَلَعٍ، بَلْ يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ: بِمَنْزِلَةِ الْخَلَاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَلْبِ مَكَانَةٌ، وَالسَّعْيُ فِيهِ إِذَا سَعَى: كَإِصْلَاحِ الْخَلَاءِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: «مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ: شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ: جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ».

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَى الدُّنْيَا؛ وَأَنْتَ إِلَى نَصِيبِك مِنَ الْآخِرَةِ أَحْوَجُ، فَإِنْ بَدَأْت بِنَصِيبِك مِنَ الْآخِرَةِ مُرَّ عَلَى نَصِيبِك مِنَ الدُّنْيَا فَانْتَظَمَهُ انْتِظَامًا؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[الذاريات].

ثم بيَّن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بيانًا آخر:

البيان الأول: في الإجابة على سؤال السائل عن أرجح المكاسب، يتعلق بالتوكل على الله واللجوء إليه وبذل الأسباب المشروعة.

البيان الثاني: قال له: (ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافٍ وَهَلَعٍ) الإجابة على السؤال ستأتي لاحقًا، لكن هٰذه مقدمات يحتاج إليها من يدخل في أبواب التجارة، ومجالات الاكتساب وطلب الرِّزق، ولمَّا دخل كثير من الناس في التجارة بدون هٰذه المقدمات دخلوا في مداخل سيئة جدًّا، وجرَّت عليهم ورطات عظيمة في مكاسب محرمة أو أعمال محرّمة أو طرائق محرمة، ولهٰذا كل إنسان يدخل للتجارة يحتاج فعلًا إلى هاتين المقدمتين اللتين بدأ بهما شيخ الإسلام:

المقدمة الأولى: مقام التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبذل الأسباب المشروعة.

والمقدمة الثانية: (أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافٍ وَهَلَعٍ) يعني: لا تكون نفسه فيها هلع وجشع وطمع وإشراف للمال، وإنما تكون نفسه تأخذ هٰذا المال بسخاوة، لا أن يكون هٰذا المال هو أكبر همه، ولا أن يكون هٰذا المال أيضًا هو مبلغ علمه، وفي الدعاء: «اللّٰهمَّ لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ عِلمنا».

قال: (أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافٍ وَهَلَعٍ، بَلْ يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ: بِمَنْزِلَةِ الْخَلَاءِ) وهٰذه صعبة جدًّا، شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «العبودية» لما جاء لمسألة المال -المال سمِّي مال لأنه يميل بصاحبه- قال: (ينبغي أن يجعل الإنسان ماله مثل الحمار، يركبه للحاجة أو يجعله مثل بساطه الذي يجلس عليه، -قال- لا، بل يجعله مثل الكنيف).

وهنا في هٰذه الوصية ترك التمثيل بالحمار والفراش، ومباشرة قال: (يجعله مثل الخلاء) والخلاء يحتاجه الإنسان لقضاء حاجته، فالمال أيضًا، مال الإنسان لقضاء حاجته، ما يحتاج إليه، الإنسان الذي يجمع الأموال يقول: مالي مالي، لكن ما الذي له من ماله؟ ليس له من ماله إلا ما لبس فأبلىٰ أو أكل فأفنىٰ أو تصدق فأبقىٰ، أما بقية المال ولو كانت الملايين فهي ليست له، للورثة، ولهٰذا يسمىٰ جامع المال خازن، مهمته خزن المال وجمع المال للورثة، مثل ما قال الناظم:

وأموالنا لذوي الميراث نجمعها وبيوتنا لخراب الدهر نبنيها

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (بَلْ يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ: بِمَنْزِلَةِ الْخَلَاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَلْبِ مَكَانَةٌ) إذًا ملخص وصية شيخ الإسلام: أن يكون المال في يد الإنسان ولا يكون في قلبه، المال يكون في يده؛ ليقضي حاجته؛ ليقضي مصالحه، لا يكون في قلبه، الذي في قلبه هو الذي خُلق لأجله وأوجد لأجله وهو العبودية والخضوع والذل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والانكسار بين يديه سبحانه، جل وعلا.

قال: (بَلْ يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ: بِمَنْزِلَةِ الْخَلَاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَلْبِ مَكَانَةٌ، وَالسَّعْيُ فِيهِ إِذَا سَعَىٰ: كَإِصْلَاحِ الْخَلَاءِ) إذا سعىٰ في إصلاح ماله؛ مثل سعيه في إصلاح خلائه لأنه يحتاجه في أوقات معينة، الخلاء يحتاجه في أوقات معينة، أيضًا المال؛ حاجة الإنسان إليه في الانتفاع به هي في أشياء معينة.

قال: (وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: «مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ: شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ) أي صنعته ومصلحته وحاجته (وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ: جَمَعَ اللهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ») إذًا هٰذا الحديث العظيم فيه دعوة للمؤمن ألا يجعل الدنيا في قلبه، ولا يجعل المال في قلبه، وإنما يجعل همه الآخرة، وسعيه للآخرة، ويبذل من الأسباب في تحصيل المال وكسب المال وطلب الرزق، لكن لا يكون المال

أكبر همه، ولا يكون أيضًا مبلغ علمه.

وأيضًا تأمَّل في الدعاء، فيه نُكتة مهمة في الباب، الدعاء قال فيه ﷺ: «اللَّهمَّ لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ علمنا» ومعنى ذلك: أنه مباح للإنسان أن يهتم، ومطلوب من الإنسان أن يهتم بأمر دنياه؛ مصالحه، رزقه، بيته، إلى آخر ذلك، مطلوب منه أن يهتم بهذا الأمر، لكن لا يجعل هذه الأشياء هي أكبر همه ومبلغ علمه.

قال: (وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَى الدُّنْيَا؛ وَأَنْتَ إِلَى نَصِيبِك مِنَ الْآخِرَةِ أَحْوَجُ) إذًا كيف يصنع الإنسان؟! أنت محتاج إلى الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، إذًا ماذا يصنع والحالة هذه؟! قال: (فَإِنْ بَدَأْت بِنَصِيبِك مِنَ الْآخِرَةِ مُرَّ عَلَى نَصِيبِك مِنَ الدُّنْيَا فَانْتَظِمْهُ انْتِظَامًا) يعني: لا تجعله هو همَّك، ولا تجعله هو مبلغ علمك، وإنما لك وِجهة، لك سفر، لك مقصد «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» فيأتي لحاجته الدنيوية ينتظمها انتظامًا، لا أن يقيم عندها ويجعلها هي التي تأخذ قلبه، وتأخذ همَّه، وتأخذ فكره، وتأخذ علمه، وينصرف بها عما خلق لأجله وهو عبادة الله والاستعداد والتهيؤ للدار الآخرة.

قال: (أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَى الدُّنْيَا؛ وَأَنْتَ إِلَى نَصِيبِك مِنَ الْآخِرَةِ أَحْوَجُ، فَإِنْ بَدَأْت بِنَصِيبِك مِنَ الْآخِرَةِ مُرَّ عَلَى نَصِيبِك مِنَ الدُّنْيَا فَانْتَظِمْهُ انْتِظَامًا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾) لماذا جاء بهذه الآية؟ ليُنبه الإنسان في هذا المقام أنه مخلوق للعبادة، لم يُخلق للدنيا، ولم يخلق لهذا المال، خلق لعبادة الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إذًا هذا الذي خُلق لأجله وأُوجد لتحقيقه هو الذي ينبغي أن يكون أكبر هم الإنسان، وأن يكون هو مبلغ علم الإنسان، وأن يهتم به، وأن يقدِّمه على أي أمر آخر قال: (﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات]).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَأَمَّا تَعْيِينُ مَكْسَبٍ عَلَىٰ مَكْسَبٍ مِنْ صِنَاعَةٍ، أَوْ تِجَارَةٍ، أَوْ بِنَايَةٍ، أَوْ حِرَاثَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَهٰذا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ، وَلَا أَعْلَم فِي ذَلِكَ شَيْئًا عَامًّا، لَكِنْ إِذَا عَنَّ لِلْإِنْسَانِ جِهَةٌ فَلْيَسْتَخِرِ اللهَ تَعَالَىٰ فِيهَا الِاسْتِخَارَةَ الْمُتَلَقَّاةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ ﷺ فَإِنَّ فِيهَا مِنَ الْبَرَكَةِ مَا لَا يُحَاطُ بِهِ. ثُمَّ مَا تَيَسَّرَ لَهُ، فَلَا يَتَكَلَّفُ غَيْرَهُ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَرَاهَةٌ شَرْعِيَّةٌ.

هنا دخل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان مطلوب السائل، عندما سأل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عن أرجح المكاسب، لكنه قدَّم كما أسلفت بمقدمتين مهمتين:

المقدمة الأولىٰ: في التوكل مع بذل الأسباب المشروعة.

والمقدمة الثانية: أن يأخذ المال بسخاوة نفس لا أن يأخذه بإشراف نفس، والعبد إذا أخذ المال بإشراف نفس وهلع وعلَّق قلبه بهٰذا المال يضره أضرارًا عظيمة حتىٰ في صحته، وربما بعض الناس يفقد الحياة أو يصاب بجلطة أو أشياء من هٰذا القبيل بسبب أنه علَّق قلبه بهٰذا المال، ولهٰذا أحد الكُتَّاب وليس من المسلمين، كان يتكلم عن الأسهم، وكانت قديمًا وجدت في بعض الدول، فكان يذكر حقيقة عاينها، يقول: (بات من المتقرر أنه كلما انخفضت نسبة الأسهم زادت نسبة السكر في الدم) وأيضًا ذكر شيئًا يتعلق بالضغط وكذا، فهٰذه أمور لما تعلق قلبه بهٰذه الأشياء أصبحت صحة الإنسان وعافيته تتبع هٰذا المال الذي تعلق قلبه به، بينما إذا أخذ المال بسخاوة نفس؛ لا بإشراف نفس عوفي بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من هٰذه الأسقام، وأيضًا لمَّا علَّق أناس قلوبهم بهٰذا المال أصبح يصاب بأمراض مثل: القلق وأشياء من هٰذا القبيل تُضِرّ بصحته وعافيته، وليس له من المال إلا ما قسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، وهٰذا المعنىٰ سبق أن أوضحه وبيّنه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

الشاهد لمَّا أنهىٰ بيان هاتين المقدمتين دخل في مطلوب السائل، فقال: (فَأَمَّا تَعْيِينُ مَكْسَبٍ عَلَىٰ مَكْسَبٍ مِنْ صِنَاعَةٍ، أَوْ تِجَارَةٍ، أَوْ بِنَايَةٍ، أَوْ حِرَاثَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَهٰذا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ، وَلَا أَعْلَمُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا عَامًّا) يعني؛ بحيث أنه يُقال: التجارة هي الأفضل أو الزراعة هي الأفضل أو الماشية هي الأفضل، يقول: (لَا أَعْلَم فِي ذَلِكَ شَيْئًا عَامًّا) لكن الإنسان يمضي فيما ييسّره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك وما يجد نفسه تميل له، فأُناس تميل إلىٰ الصناعة، وهناك من يميل إلىٰ الحراثة، وهناك من يميل إلىٰ كذا، قال:

(وَلَا أَعْلَم فِي ذَلِكَ شَيْئًا عَامًّا، لَكِنْ إِذَا عَنَّ لِلإِنْسَانِ) يعني: ظهر وبرز للإنسان جهة معينة (فَلْيَسْتَخِرِ اللهَ تَعَالَىٰ فِيهَا الِاسْتِخَارَةَ الْمُتَلَقَّاةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ ﷺ) يصلي صلاة الاستخارة ويأتي بالدعاء المأثور عن النبي ﷺ قال: (فَإِنَّ فِيهَا) أي الاستخارة (مِنَ الْبَرَكَةِ مَا لَا يُحَاطُ بِهِ).

قال: (ثُمَّ مَا تَيَسَّرَ لَهُ) أي من أبواب الكسب، فلا يتكلف غيره، لأن بعض الناس تجده مضطرب وكثير التنقل فلا يثبت علىٰ باب ولا يقر له قرار، فيقول: (ثُمَّ مَا تَيَسَّرَ لَهُ، فَلَا يَتَكَلَّفُ غَيْرَهُ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَرَاهَةٌ شَرْعِيَّةٌ) فيتركه لما فيه من كراهة شرعية، يعني يتركه لأنه يخشىٰ أن فيه محظورًا؛ لكن إذا مشىٰ في مجال معين ومالت إليه نفسه وخطا فيه يستمر في هٰذا الأمر ولا ينتقل عنه لغيره إلا أن يكون منه كراهة شرعية، ويكون بهٰذا أنهىٰ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ما طَلب منه السائل، وبقي أمرًا أخيرًا وهو: الكُتب التي يوصيه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بقراءتها.

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفقنا جميعًا لما يحبه ويرضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال.

اللَّهمَّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر.

اللَّهمَّ اغفر ذنوب المذنبين، وتب علىٰ التائبين، اللَّهمَّ فرج هم المهمومين، ونفِّس كرب المكروبين، واقض الدين عن المدينين، واشف مرضانا ومرضىٰ المسلمين، وارحم موتانا وموتىٰ المسلمين، اللَّهمَّ آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

اللَّهمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.

اللَّهمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا.

سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المجلس السادس

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في وصيته:

وَأَمَّا مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ فِي الْعُلُومِ: فَهٰذا بَابٌ وَاسِعٌ، وَهُوَ أَيْضًا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ نَشْءِ الْإِنْسَانِ فِي الْبِلَادِ، فَقَدْ يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ مِنَ الْعِلْمِ، أَوْ مِنْ طَرِيقِهِ، وَمَذْهَبِهِ فِيهِ مَا لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَلَدٍ آخَرَ. لَكِنْ جِمَاعَ الْخَيْرِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللهِ سُبْحَانَهُ فِي تَلَقِّي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّىٰ عِلْمًا، وَمَا سِوَاهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عِلْمًا، فَلَا يَكُونُ نَافِعًا، وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ عِلْمًا وَإِنْ سُمِّيَ بِهِ. وَلَئِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي مِيرَاثِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا يُغْنِي عَنْهُ؛ مِمَّا هُوَ مِثْلُهُ وَخَيْرٌ مِنْهُ.

وَلْتَكُنْ هِمَّتُهُ فَهْمَ مَقَاصِدِ الرَّسُولِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَسَائِرِ كَلَامِهِ.

فَإِذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ: أَنَّ هٰذا هُوَ مُرَادُ الرَّسُولِ؛ فَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَىٰ وَلَا مَعَ النَّاسِ إِذَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ.

وَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَعْتَصِمَ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِأَصْلٍ مَأْثُورٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَإِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِمَّا قَدِ اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ، فَلْيَدْعُ بِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ، وميكائيل، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ قَالَ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ: «يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ، إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ».

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد؛ فهٰذا هو آخر ما يتعلق بما أوصىٰ به شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أبا القاسم السِّبتي رحمهما الله، وكان كما عرفنا؛ أبو القاسم السِّبتي طلب من شيخ الإسلام وصيةً جامعة مختصرة، وحدَّد في طلبه ما أراد من شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُوصيه به، وكان مما طلب كما مرَّ معنا، قال: (وَيُرْشِدُنِي إِلَىٰ كِتَابٍ يَكُونُ عَلَيْهِ اعْتِمَادِي فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَكَذَلِكَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ) وفي هٰذا الموضع

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

أخذ يتحدث شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هٰذه الوصية بما يتعلق بهٰذا الجانب، وهو: ما يعتمد عليه طالب العلم من الكتب، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَمَّا مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ فِي الْعُلُومِ) أي: علوم الشريعة (فَهٰذا بَابٌ وَاسِعٌ) لأن الشريعة كما لا يخفىٰ؛ هناك القرآن وعلومه، والتفسير وقواعد التفسير، وهناك أيضًا الحديث وما يتعلق به من حيث الرواية ومن حيث الدراية، هناك أيضًا ما يتعلق بالأحكام والفقه في دين الله عقيدة وعبادة، وأيضًا هناك ما يتعلّق بعلوم الآلة التي تخدم وتكون مقصودةً لغيرها؛ مقصودة لفهم دين الله تبارك وتعالىٰ، فيقول: (فَهٰذا بَابٌ وَاسِعٌ) أي الحديث عن ذلكم لا تحتمله هٰذه الوصيَّة المختصرة، هٰذا من جهة.

قال: ومن جهة أخرىٰ أن هٰذا (أَيْضًا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ نَشْءِ الْإِنْسَانِ فِي الْبِلَادِ) ونشأة الإنسان في البلد من حيث وجود الكتب العلمية، ومن حيث أيضًا من يُعلِّمه ما في هٰذه الكتب من علم أمرٌ أيضًا يحدّد إمكانية الإنسان في التعلُّم ولاسيما في الزمن الذي يتحدَّث فيه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بهٰذه الوصية، وهو زمانٌ يختلف عن زماننا هٰذا من حيث الإمكانات لا من حيث توفُّر الكتب، ونحن نرىٰ بوجود المطابع الحديثة كيف أصبحت تنشر الكتب بكميات هائلة، وبالآلاف المؤلّفة، فتنتشر الكتب بكميات هائلة جدًّا، بينما سابقًا الكتاب لا ينتشر إلا بأقلام الطلبة، ولهٰذا ثمَّة محدودية بانتشار الكتب، فالكتاب إنّما ينتشر بأقلام الطلبة، ولهٰذا الكتاب الواحد يتداوله العشرات، وربما المئات، كلٌّ يستعيره لليلة أو ليلتين حتىٰ يَمُر علىٰ ما في الكتاب، وكان أحيانًا إذا مرَّ عالم ومعه بعض كتبه علىٰ قرية أو علىٰ مدينة طلاب العلم؛ في تلك الليلة التي مرَّ بها عليهم يستعيرون ما عنده من كتب نسخًا وقراءةً وحفظًا لما يستطيعون حفظه مما اشتملت عليه تلك الكتب، ففي زماننا هٰذا الأمر اختلف تمامًا من حيث كثرة الكُتب، واختلف أيضًا تمامًا من حيث وسائل الاتّصال وطرائق التلقي، حتىٰ إنَّ بعض أهل العلم ماتوا منذ سنوات وعلومهم محفوظة بأصواتهم، وهٰذا لم يكن في الزَّمان الأول، الآن تستطيع أن تسمع شروحات نفيسة جدًّا للإمام ابن باز، للإمام ابن عثيمين للإمام الألباني، لغيرهم من أئمة العلم والفضل، تستطيع أن تسمع ذلكم بأصواتهم، إضافةً إلىٰ وسائل الاتصال التي يسَّرت أمورًا كثيرة، لكن مع هٰذا اليُسر أيضًا في المقابل هناك زُهد، يعني مع هٰذا اليُسر في هٰذه الوسائل وتوفُّر الكتب وطريقة التحصيل أيضًا في المقابل هناك زُهد في التلقِّي، قديمًا الكتاب الثَّمين لابد أن يقرأه طالب العلم كاملًا لأنه يمر به

مرورًا، إن لم يقرأه ويحاول أن يستوعب ما فيه في ليلة أو ليلتين أو ثلاث فاته، فتجده يحرص عليه أشدَّ الحرص، بينما نحن لا نقرأ الكتاب، نقتني الكتاب ولا نقرأه، وكل ما أردنا أن نقرأ الكتاب قالت لنا النفس: الكتاب عندك في البيت؛ متىٰ ما احتجته تقرأه وهو متوفر عندك، فيبقىٰ الكتاب في الرف لا يُقرأ، فاللّٰهمَّ إلا أول ما يقتنيه طالب العلم ربما ينظر في فهرسه أو في بعض المواضع منه ثم لا يعود إليه ثانية مرة أخرىٰ، فتوفُّر الكتب بهٰذه الطريقة أدَّىٰ عند كثير من الناس إلىٰ الزُهد في كتب العلم والاستفادة منها وقراءتها والانتفاع بها، فخلاصة القول أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يتحدَّث عن الحال في زمانه.

قال: (أَيْضًا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ نَشْءِ الْإِنْسَانِ فِي الْبِلَادِ) لمحدودية التحصيل في ذلك الوقت، أما في زماننا هٰذا الأمر اختلف.

أذكر مرة، ذكرتُ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ خبرًا سرَّه جدًّا، في إحدىٰ الدول رأيت مجموعة من الشباب، وكانوا يسألون أسئلة علمية، أسئلة طلاب علم، قلت: أنتم ماذا تعملون هنا؟ قالوا: «نحن عمال في مصنع ملابس» اضطرَّتهم حاجتهم للعمل لطلب الرزق، قلت: لكن هٰذه الأسئلة التي تسألونها تدل علىٰ شيء من التَّحصيل، قالوا: نحن منذ سنوات عندنا درس أسبوعي مع الشيخ ابن عثيمين، قلت: تتصلون به بالهاتف؟! قالوا: لا، نحن كل أسبوع نستمع شريطًا من شرحه لبلوغ المرام، نحفظ الأحاديث ونسمع شرح الشيخ، ولنا سنوات كل أسبوع نسمع شريطًا واحدًا، العمل إذا استمرَّ ولو كان قليلًا يُعطي ثمرة ولو بعد سنوات؛ لكن المشكلة من يمضي حياته ولا يجعل للعلم حظًّا أو نصيبًا، فهؤلاء جعلوا يوم واحد في الأسبوع يجلسون جلسة معًا ولهم طريقة أيضًا معينة شرحوها، فذكرت ذلك للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ فسُرَّ بذلك.

هٰذه الطرائق الآن لم تكن متوفِّرة لدىٰ من سبقنا، فتيسَّرت وسائل حقيقة لتحصيل العلم والاستفادة من العلماء، أمورًا لم تكن متيسِّرة في وقت سابق.

قال: (وَهُوَ أَيْضًا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ نَشْءِ الْإِنْسَانِ فِي الْبِلَادِ، فَقَدْ يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ مِنَ الْعِلْمِ، أَوْ مِنْ طَرِيقِهِ، وَمَذْهَبِهِ فِيهِ مَا لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَلَدٍ آخَرَ) ويمكن أن يُضاف علىٰ ما قاله وهو يكتب لشخص معاصر له، لكن من حيث الوصية عمومًا نقول أيضًا: يتيسر من وسائل التحصيل في زمان ما لا يتيسر في زمان آخر، مثل ما هو الأمر الآن في زماننا هٰذا، يعني: الرَّجل أو المرأة في بيته في قرية من القرىٰ أصبح

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

يتمكن -وهو في القرية- هٰذا لم يكن موجود إطلاقًا في وقت سابق، وهو في بيته، المرأة وهي في بيتها جالسة، في غرفتها، تستطيع تحصّل علمًا غزيرًا بوسائل الاتصال الحديثة، هٰذا الأمر لم يكن موجود سابقًا، الإنسان في القرية متىٰ يُحصّل علمًا؟ إلا من خطيب الجمعة أو إذا كان وُجد عالمًا مرَّ بقرية ألقىٰ درسًا أو درسين أو جلس أيامًا يُلقي دروسًا، لٰكِن الآن تيسَّرت الوسائل؛ لكن بالمقابل أيضًا حصل زُهد كبير لدىٰ الناس في تحصيل العلم، بينما في وقت سابق العالم إذا مرَّ يحاول طلبة العلم أن يأخذوا أكبر قدر من الفوائد، والفوائد التي يأخذونها أيضًا تُضبط ويحرصون علىٰ ضبطها، لأنها إذا ما ضُبطت ذهبت، فتجده يحرص علىٰ ذلك أشد ما يكون من الحرص.

قال: (لَكِنَّ جِمَاعَ الْخَيْرِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللهِ سُبْحَانَهُ) وتعالىٰ وهٰذا أصل عظيم يؤكِّد عليه رَحِمَهُ اللهُ في كل مقام، يغرسه في كل مناسبة، مرَّ معنا قريبًا لمَّا تحدَّث عن أرجح المكاسب؛ أول ما بدأ قال: (تتوكل علىٰ الله) أيضًا في طلبك للعلم قال: تستعين بالله، تطلب العون من الله، والله لا يمكن أن تُحصِّل فائدة واحدة إلا إذا أعانك الله علىٰ تحصيلها، إلا إذا يسَّرها الله لك، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء]، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه] فلا يمكن أن يُحَصِّل الإنسان من العلم قدر ذرة إلا إذا أعانه رب العالمين، ولهٰذا من أهم المهمات وآكد المطالب في هٰذا الباب أن يعتني طالب العلم بالاستعانة؛ طلب العون من الله ﷻ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه] كان عليه الصلاة والسلام كُلَّ يوم إذا أصبح قال في دعائه بعد أن يُسَلِّم من صلاة الفجر: «اللَّهُمَّ إني أسألك علما نافعًا، ورزقا طيبًا وعملًا متقبلًا» يدعو بهٰذه الدعوات الثلاث كل يوم في الصباح، ويبدأ بالعلم النافع مُقدِّما له علىٰ الرزق وعلىٰ العمل؛ لأنَّ العلم أساس لابد منه ليميز به صاحبه بين الرزق الطيِّب والخبيث؛ وبين العمل الصالح والفاسد، إذا لم يكن عند طالب العلم أو عند المسلم علم يُضيء له طريقه كيف يميز بين خبيث وطيب أو صالح أو طالح، فالعلم هو الأساس وبه يُبدأ، ولهٰذا بدأ الله به قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [محمد:١٩] فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، ونبينا عليه الصلاة والسلام بدأ بالعلم في هٰذه الدعوة قبل الرزق وقبل العمل، لأنه أساس لابد منه، ولابد من تقديمه حتىٰ يستطيع المسلم أن يميِّز في باب الأرزاق بين طيبها وخبيثها، وفي باب الأعمال بين صالحها وطالحها.

قال: (لَكِنْ جِمَاعَ الْخَيْرِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللهِ سُبْحَانَهُ فِي تَلَقِّي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ) أن يطلب من الله جل وعلا أن يعينه علىٰ تلقي العلم الموروث عن النبي صلوات الله وسلامه عليه. حدَّد هنا العلم الموروث عن النبي ﷺ، قد صح في الحديث أنه ﷺ قال: «والأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

قال: (الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّىٰ عِلْمًا) لأنه هو العلم الذي يُضيء للعبد الغاية التي خلق لأجلها ووجد لتحقيقها، هو الذي يكون به الخروج من الظلمات إلىٰ النور، يكون به إبصار الطريق، ولهٰذا جاء في القرآن تسمية الوحي نورًا، كما قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ:٥٢] فالعلم نور لصاحبه، يضيء له طريقه، العلم الموروث عن النبي ﷺ نور لصاحبه يضيء له طريقه ويمشي به في الظلمات، يعرف أين يضع قدمه، يعرف إلىٰ أين يسير، يعرف ماذا يتقي، يعرف الحلال من الحرام، الهدىٰ من الضلال، السنة من البدعة، الحق من الباطل، كل ذلكم لا يعرف إلا بالعلم، ولا سبيل إلىٰ معرفته إلا بالعلم، فهو الذي يستحق أن يسمىٰ علمًا، وفي الآيات: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ [الرعد:١٩] ونحوها من الآيات؛ المراد بها هٰذا العلم الموروث عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قال: (وَمَا سِوَاهُ) أي ما سوىٰ هٰذا العلم الموروث عن النبي ﷺ (إِمَّا أَنْ يَكُونَ عِلْمًا، فَلَا يَكُونُ نَافِعًا) إما أن يكون علمًا؛ يعني: يُطلق عليه علم لكنه ليس بنافع؛ إما أنه ليس بنافع أو ضار ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾ [البقرة:١٠٢] السحر علم يُتعلم لكنه علم ضار، يهلك متعلِّمَه ويوبقه في دنياه وأخراه، وهكذا العلوم الأخرىٰ (وَمَا سِوَاهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عِلْمًا، فَلَا يَكُونُ نَافِعًا، وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ عِلْمًا وَإِنْ سُمِّيَ بِهِ) ومما يصلح شاهدًا لهٰذا ما يسمىٰ بـ«علم الكلام» السلف رحمهم الله قالوا في ذم علم الكلام: «العلم بالكلام جهل، والجهل بالكلام علم» قالوا: «العلم بالكلام جهل» لأن حقيقته جهالات وإنْ ظنها أصحابها خلاف ذلك؛ لكنها في الحقيقة جهالات، ولهٰذا قال السلف قديمًا -في ذمهم لهٰذا العلم-: «العلم بالكلام جهل، والجهل بالكلام علم» يعني عندما يُعرض الإنسان عن علم الكلام

ويحرص على أن يكون جاهلًا بهٰذا العلم، ليس مُتعلمًا له، مُعرضًا عنه، هٰذا دليل على ماذا؟ دليل على أنه عنده علم حجزه وصرفه عن الاشتغال بهٰذا الكلام الباطل الذي لا يورث إلا الشكوك والأضرار في عقائد الناس وأديانهم.

قال: (وَإِمَّا أَلَّا يَكُونَ عِلْمًا وَإِنْ سُمِّيَ بِهِ. وَلَئِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا) هٰذا احتمال ثالث (وَلَئِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا) يعني وجد أشياء؛ نقولات؛ فيها حكم؛ فيها فوائد ونحو ذلك (وَلَئِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي مِيرَاثِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا يُغْنِي عَنْهُ) يعني مثلًا عندما يتحدث بعض الناس عن الآداب، تجده يقول: قال الكاتب الفلاني من غير المسلمين، وقال الكاتب الفلاني من غير المسلمين، وينقل عن كُتَّاب مثلًا غربيين آداب، وتكون هٰذه الآداب حسنة في نفسها، ليست بسيئة فينقلها وينشرها بأسماء هؤلاء، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَئِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي مِيرَاثِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا يُغْنِي عَنْهُ؛ مِمَّا هُوَ مِثْلُهُ وَخَيْرٌ مِنْهُ) ولهٰذا أمة محمد عليه الصلاة والسلام الذين أكرمهم بأن كانوا أتباعًا لهٰذا النبي صلوات الله وسلامه عليه، الذي جاء بأبواب الخير كلها، ما ترك خيرًا إلا دلَّ الأمة عليه، ولا شرًا إلا حذرها منه، ينبغي أن يكون ارتباطهم بهديه، وصدورهم عن سنته، وتلقيهم عنه صلوات الله وسلامه عليه، وأن يتخذوه إمامًا لهم في العقيدة وفي العبادة وفي الآداب، في جميع جوانب الدين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلْتَكُنْ هِمَّتُهُ فَهْمَ مَقَاصِدِ الرَّسُولِ) لمَّا قدَّم بهٰذا التقديم؛ قال: ينبغي على طالب العلم أن تتجه همته، عزيمته، رغبته تتجه لفهم مقاصد الرسول ﷺ، وهٰذا أيضًا تنبيه من شيخ الإسلام ألا يكون حظ طالب العلم من العلم حفظ الألفاظ المأثورة؛ بل يحرص مع حفظها على الفهم، ولهٰذا قال عليه الصلاة والسلام: «نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأدَّاها كما سمعها» قال: «ووعاها» لابد من الوعي والفهم لكلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

قال: (وَلْتَكُنْ هِمَّتُهُ فَهْمَ مَقَاصِدِ الرَّسُولِ ﷺ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَسَائِرِ كَلَامِهِ) الذي جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام هو: إما أمر أو نهي أو أخبار، فقوله (وَسَائِرِ كَلَامِهِ) هٰذا يرجع إلى جانب الأخبار المنقولة عن النبي عليه الصلاة والسلام، أما حاصل ما جاء عنه إما أمر أو نهي أو أخبار، ولهٰذا كانت الشهادة له بأنه رسول الله تعني: طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر والانتهاء عما نهى عنه وزجر، لأن حاصل ما جاء به ﷺ يرجع إلى هٰذه الأمور الثلاثة: الأوامر والنواهي والأخبار.

الأوامر تُفعل، والنواهي تُجتنب، والأخبار تُصدَّق، ولابد فيها كلها من العلم، العلم بالأمر، العلم بالنهي، العلم بالأخبار.

قال: (فَإِذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ: أَنَّ هٰذا هُوَ مُرَادُ الرَّسُولِ؛ فَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ) يعني: لا يذهب عنه لغيره، إذا اطمأن أن هٰذا هو مراد الرسول عليه الصلاة والسلام، بلغه الحديث وفهم معناه وعرف المراد، فإذا اطمأن أن هٰذا هو مراد الرسول عليه الصلاة والسلام فلا يعدل عنه، وليس لأحدٍ استبانت له سنة النبي ﷺ أن يدعها لقول أحدٍ كائنًا من كان، كما نقل نحو هٰذا المعنىٰ عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

قال: (فَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَىٰ وَلَا مَعَ النَّاسِ) يعني: في الجانبين، الذين مضت الإشارة إليهما حقوق الله وحقوق العباد، إذا استبان لك الأمر فيما يُؤثر ويروىٰ عن النبي عليه الصلاة والسلام أن هٰذا حق من حقوق الله فاظفر به ولا تعدل عنه إلىٰ غيره، كذلكم ما يتعلق بحقوق العباد مما ثبتت به الأدلة وقامت عليه الأدلة من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام فلا تعدل عنه.

قال: (فَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَىٰ وَلَا مَعَ النَّاسِ إِذَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦] «ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فانتهوا» فيجتهد قدر استطاعته علىٰ الظفر بذلك والاستمساك به.

قال: (وَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَعْتَصِمَ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِأَصْلٍ مَأْثُورٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ) في هٰذا المقام مما يؤكد عليه أهل العلم كثيرًا، قديمًا وحديثًا: العناية بكتاب الأربعين للإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، لأن هٰذا الكتاب وُفِّق مؤلفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لجمع الأحاديث الجوامع التي أتت علىٰ كليات الدين وأصوله، وجوامع كلم الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فإذا تيسَّر لطالب العلم أن يحفظ الأربعين للإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ؛ كان عنده تأصيل عظيم جدًّا في أبواب الدِّين: عقيدة وعبادة وخُلقًا، لأن الأحاديث التي جمعها الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فعلًا جمعت ذلك، فإذا فرغ من هٰذه الأربعين انتقل بعد ذلكم لما كتبه أهل العلم متدرجًا في التحصيل والطلب، سواءً في باب الاعتقاد والتوحيد أو باب العبادة والعمل أو باب الأخلاق والآداب، يتدرج تحصيلًا وتلقيًا للعلم، متدرجًا فيه؛ لكن من أهم وأولىٰ ما يُبدأ به كتاب الأربعين للإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

قال: (وَإِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِمَّا قَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ، فَلْيَدْعُ بِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ، وميكائيل، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ») وكان شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ عظيم العناية بهٰذه الدعوة، عظيم التأكيد علىٰ العناية بها، كثيرًا ما كان يوصي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ بهٰذه الدعوة، يَعلم ذلك من يطالع كُتبه رَحِمَهُ اللهُ وسيرته، وما نقله المترجمون عنه رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ، كثيرًا ما يوصي بهٰذه الدعوة ويحثُّ عليها، والمسلم عندما تشتبه عليه مسألة ويكون فيها خلاف أو يكون مثلًا نشأ علىٰ أمر من الأمور، لِنَقُل مثلًا نشأ علىٰ بدعة من البدع ستين سنة أو سبعين سنة، ثم فوجئ بعد السبعين من يقول له: (يا أخي انتبه! هٰذه بدعة، ليس عليها دليل) فيبقىٰ يتنازعه جاذبان:

جاذب ما نشأ عليه، وترعرع عليه وكبر عليه، ويصعب علىٰ كثير من الناس أن يتخلىٰ عن شيء مضىٰ عليه تلك السنوات الطوال.

وبين هٰذا الخبر الجديد أو المعلومة الجديدة التي وصلت إليه أنه بدعة.

فبعض الناس يرفض أصلًا ويغلق الباب إطلاقًا، بينما المطلوب في مثل هٰذا المقام: اللجوء إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، معلم الخير، مَنْ بيده العلم، مَنْ بيده التوفيق، مَنْ بيده السداد، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يلجأ إلىٰ الله، لا يمضي، طالما أنه فُتح له باب تنبيه فيلجأ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويدعو بهٰذه الدعوة: (اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ، وميكائيل، وَإِسْرَافِيلَ) وهٰذا توسل إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بربوبيته لهؤلاء، الملائكة كُثر، لكن خُصَّ هؤلاء الثلاث لأنهم أشرف الملائكة وأعظم الملائكة:

- جبريل موكول بالوحي؛ الذي به حياة القلوب.
- وميكائل موكول بالقطر؛ الذي به حياة الزروع والنبات.
- وإسرافيل موكول بالنفخ في الصور؛ الذي فيه حياة الأرواح.

أنواع الحياة الثلاثة، فخُص هؤلاء الثلاثة من الملائكة بذكر التوسل بربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم.

ثم قال: (فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) الذي أحاط علما بكل شيء (أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) هٰذه كلُّها توسلات إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم يأتي المطلوب (اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ) يطلب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَمُنَّ عليه بالهداية إلىٰ الحق والصواب في هٰذا الذي اختلف

فيه، ناس يقولون: سنة؛ وناس يقولون: بدعة أو ناس يقولون: واجب وناس يقولون: حرام؛ وهو لا بصيرة له ولا علم له ولا دراية له، فيدعو بهٰذا الدعاء، ثم يعتني بما أكَّد عليه شيخ الإسلام قريبًا وهو: إذا استبانت السنة بالدليل لا يعدل عنها، إذا استبانت السنة بالدليل استبانت له؛ ظهرت؛ وضَحت؛ بدليلها من كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام فلا يعدل عنها لقول أحد كائنًا من كان.

قال: (فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ قَالَ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ: «يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ، إِلَّا مَنْ هَدَيْتُه، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ»)؛ «فاستهدوني»: أي اطلبوا مني الهداية، ومن وسائل طلب الهداية: الدعاء بهٰذه الدعوة التي كان يدعو بها إمام المهتدين صلوات الله وسلامه عليه إذا قام يناجي الله في الثلث الأخير من الليل الذي هو أرجىٰ أوقات الإجابة وأحرىٰ أوقات الإجابة.

ولهٰذا ينبغي علىٰ الإنسان أن يجعل لنفسه حظًّا من هٰذا الدعاء ولاسيما في الثلث الأخير من الليل تأسيًا بالنبي ﷺ الذي كان يدعو بهٰذه الدعوة العظيمة المباركة في الثلث الأخير من الليل، ويلجأ إلىٰ الله «اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِك» قد يكون هٰذا الذي يدعو بهٰذه الدعوة نشأ علىٰ بدع؛ لكن صدق مع الله ﷻ ليليًا يسأل الله: اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، يسأل الله بصدق، يُلح علىٰ الله بصدق، يفتح الله ﷻ له من أبواب السُّنّة والبُعد عن البدعة، والبُعد عن الأهواء والضلالات، ينشرح صدره للخير، لأن الأمر بيد الله ﷻ من قبل ومن بعد، هو الهادي جل شأنه، يهدي من يشاء ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الحديد] الله جل وعلا هو الهادي ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر:٨] الهداية بيد الله ﷻ.

ولهٰذا ينبغي علىٰ المسلم أن يعتني بهٰذه الدعوة العظيمة المباركة، يحفظها، يفهم معناها، يحرص علىٰ الدُّعاء بها ولاسيما في الثلث الأخير من الليل، تأسيًا بالنبي عليه الصلاة والسلام وحرصًا علىٰ النفس ألا تبقىٰ في ظلال، ألا تبقىٰ في غواية، ألا تبقىٰ في بدع وأهواء يموت عليها الإنسان ويلقىٰ بها ربه، فما دام حيًّا، ما دامت الفرصة أمامه يدعو الله ﷻ بهٰذا الدعاء صِدقًا والتجاءً، صادقًا إلىٰ الله ﷻ، ورب العالمين يهيئ له من أبواب التيسير والفهم والمعرفة بالسُّنة والبعد عن الأهواء ما لا يحتسبه العبد وما لا يخطر له علىٰ بال، بخلاف عندما يكون الإنسان نشأ مثلًا علىٰ بعض الأعمال الخاطئة ثم يُصِرّ عليها ويبقىٰ معاندًا بالتمسك بها، وبعض الناس لو قيل له: ادْعُ الله ﷻ أن يهديك إلىٰ الحق، ادْعُ بهٰذه الدعوة،

يقول لك: وهل أنا ضال؟! أنا علىٰ هداية!!

أليست الدعوة بالهداية دعوة افترضها الله ﷻ علينا سبع عشر مرة في كلِّ يوم وليلة؟، وهٰذا لم يكن في أي دعاء آخر، فابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ صاحب هٰذا الكتاب يقول: (تأملت الدعوات فوجدت أنفعها وأعظمها سؤال الله الهداية) ليس في الدعاء أعظم من هٰذا؛ أن تسأل الله ﷻ أن يهديك، ليس في الدعاء أفضل من هٰذا الدعاء، هو أعظم دعاء، ولهٰذا افترضه علينا جل وعلا في اليوم والليلة سبع عشرة مرة نقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ سورة الفاتحة هٰذا دعاء ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ أي: أسألك يا ألله أن تهديني الصراط المستقيم ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ هٰذا دعاء، ودعاء فرضه الله علينا فرضًا في اليوم والليلة سبع عشرة مرة؛ لأن الصلوات المكتوبة عدد ركعاتها في اليوم والليلة سبع عشرة ركعة: الفجر اثنتين، والظهر أربع، والعصر أربع، والمغرب ثلاث، والعشاء أربع، فهٰذه سبع عشرة ركعة في اليوم والليلة، في كل ركعة تقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ تسأل الله الهداية، فهٰذه الدعوة؛ دعوة عظيمة ينبغي علىٰ المسلم أن يعتني بها، سواءً الدعاء الذي في فاتحة الكتاب أو هٰذا الدعاء المبارك الذي يدعو به المسلم كل ليلة، جاء في «صحيح مسلم» أن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: علمني دعاءً أدعو الله به قال: «قل اللّٰهمَّ إني أسألك الهدىٰ والسداد» وفي رواية قال: «قل: اللّٰهمَّ اهدني وسددني»، واذكر بالهداية: هداية الطريق، واذكر بالسداد: سداد القوس، فعلمه عليه الصلاة والسلام هٰذه الدعوة، فنحافظ علىٰ الدعاء، اللهم إني أسألك الهدىٰ والسداد، اللّٰهمَّ إني أسألك الهدىٰ والتقىٰ والعِفَّة والغنىٰ، اللّٰهمَّ اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، أدعية كثيرة مأثورة عن النبي ﷺ يحرص المسلم عليها ويعتني بها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

وَأَمَّا وَصْفُ «الْكُتُبِ وَالْمُصَنِّفِينَ»، فَقَدْ سُمِعَ مِنَّا فِي أَثْنَاءِ الْمُذَاكَرَةِ مَا يَسَّرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ.

وَمَا فِي الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ الْمُبَوَّبَةِ: كِتَابٌ أَنْفع مِنْ «صَحِيح مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ» لَكِنْ هُوَ وَحْدَهُ لَا يَقُومُ بِأُصُولِ الْعِلْمِ، وَلَا يَقُومُ بِتَمَامِ الْمَقْصُودِ لِلْمُتَبَحِّرِ فِي أَبْوَابِ الْعِلْمِ، إِذْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحَادِيث أُخَرَ.

وَكَلَامُ أَهْلِ الْفِقْهِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَخْتَصُّ بِعِلْمِهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ. وَقَدْ أَوْعَبَتِ الْأُمَّةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ إِيعَابًا.

فَمَنْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ هَدَاهُ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ أَعْمَاهُ لَمْ تَزِدْهُ كَثْرَةُ الْكُتُبِ إِلَّا حَيْرَةً وَضَلَالًا.

كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ: «أَوَلَيْسَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ؟! فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟».

فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْهُدَىٰ وَالسَّدَادَ وَيُلْهِمَنَا رُشْدَنَا وَيَقِينَا شَرَّ أَنْفُسِنَا وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَصَلَوَاتُهُ عَلَىٰ أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَمَّا وَصْفُ «الْكُتُبِ وَالْمُصَنِّفِينَ»، فَقَدْ سُمِعَ مِنَّا فِي أَثْنَاءِ الْمُذَاكَرَةِ مَا يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ) أي أنه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في مجالسه العلمية وفي دروسه كان يَذْكُر لطلاب العلم ما يحتاجون إليه من كتب، يذكر لهم الكتب ويذكر لهم مُصنِّفيها بحسب المقامات التي كان رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يقررها ويتكلم فيها، فيقول: (سُمِعَ مِنَّا فِي أَثْنَاءِ الْمُذَاكَرَةِ مَا يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَمَا فِي الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ الْمُبَوَّبَةِ: كِتَابٌ أَنْفَع مِنْ «صَحِيح مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ») كتاب البخاري الذي هو كتاب الصحيح؛ أصح كتاب بعد كتاب الله ﷻ، وهٰذا الكتاب مثل ما يوضِّح شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ جمع بين الصِّحَّة ودقة الأبواب، جمع بين صحة الأحاديث ودقة الأبواب وشمولها لجميع أبواب الشريعة، ولهٰذا نصَّ علىٰ هٰذا المعنىٰ، قال: (وَمَا فِي الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ الْمُبَوَّبَةِ: كِتَابٌ أَنْفَع مِنْ «صَحِيح مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ») فكان ذلكم منه رَحِمَهُ اللَّهُ تأكيد لهٰذا الرجل الذي طلب الوصية من شيخ الإسلام أن يعتني بكتاب: «صحيح الإمام البخاري».

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

كنت أشرت فيما سبق أن أبا القاسم السِّبتي رَحِمَهُ اللَّهُ له كتاب تحدث فيه عن رحلاته ولقاءاته بأهل العلم وسماعاته منهم، وكان رجلا يرحل في طلب العلم وتحصليه، وكتابه هٰذا طُبع بعنوان «برنامج التّجيبي» قال فيه: (وكان من جملة الوصايا التي أوصاني بها التقي الفاضل أبو العباس ابن تيمية أن قال لي: «ما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من صحيح محمد بن إسماعيل») يذكر هٰذه الوصية التي سمعها وتلقَّاها عن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، ثم قال: (وصدق ابن تيمية) قوله: «وصدق» يدلُّ علىٰ أن هٰذه الوصية كان لها أثر عليه، بمعنىٰ أنه اعتنىٰ بالكتاب عملًا بهٰذه الوصية ورأىٰ أثر هٰذا الكتاب وعِظم عائدته وكبر فائدته، قال: (وصدق ابن تيمية، والله يُفهِّمنا ما فيه، ويُرشدنا للعمل بمقتضاه، بمنِّه وكرمه) ودعىٰ بهاتين الدعوتين: (يفهمنا ما فيه، ويرشدنا للعمل بمقتضاه) لأنه مرَّ معنا تأكيد شيخ الإسلام علىٰ قضية الفهم، وتأكيده علىٰ قضية العمل، وأيضًا تأكيده علىٰ الدُّعاء؛ تأكيد ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ الدعاء: أن تدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يعينك؛ لأنك لا تستطيع أن تعمل أو تتعلم أو تُحصِّل أي شيء إلا إذا أعانك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ ذلك ويسره لك.

ثم قال شيخ الإسلام: (لَكِنْ هُوَ وَحْدَهُ لَا يَقُومُ بِأُصُولِ الْعِلْمِ، وَلَا يَقُومُ بِتَمَامِ الْمَقْصُودِ لِلْمُتَبَحِّرِ) والناس في هٰذا الباب علىٰ مراتب وعلىٰ درجات، فالمتبحر في علم الشريعة لا يكفيه الاقتصار علىٰ «صحيح الإمام البخاري»؛ (إِذْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحَادِيثَ أُخَرَ)؛ لأن الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ لم يقصد استيعاب جميع الصحيح الثابت عن الرسول عليه الصلاة والسلام، إذًا لابد من معرفة أحاديث أُخر ليست في صحيح البخاري، (وَكَلَامُ أَهْلِ الْفِقْهِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَخْتَصُّ بِعِلْمِهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ) فتجد عالمًا برز في التفسير، وعالمًا برز في الفرائض، وعالمًا برز في الأحكام إلىٰ غير ذلكم، فالذي يتبحر في العلم يحتاج إلىٰ العناية بكلام أهل الفقه وأهل العلم في الأمور التي يختصُّ بعلمها بعض العلماء.

قال: (وَقَدْ أَوْعَبَتِ الْأُمَّةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ إِيعَابًا)؛ (أَوْعَبَتِ) من الاستيعاب؛ (فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ إِيعَابًا) يعني تجد في التفسير من فتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه في هٰذا الباب، في الفقه، في الأحاديث، في حفظ أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، «وكل ميسر لما خُلق له» هٰذا في مجاله، وهٰذا في مجاله، وهٰذا في مجاله، وكُلٌّ يُدعىٰ له بمزيد التوفيق والسداد، وكُلٌّ أيضًا يستفاد منه في مجاله وفيما يسَّره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له من خير، وهيأ له من أبواب العلم والمعرفة.

قال: (وَقَدْ أَوْعَبَتِ الْأُمَّةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ إِيعَابًا. فَمَنْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ هَدَاهُ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنْ ذَلِكَ) وإن قل، يعني: من الناس من يبلغه من العلم قدرًا قليلًا ونزرًا يسيرًا وأحاديث قلائل، لكنَّه مستمسك بها ومعتني بها ومحافظٌ عليها فهمًا وعملًا وتطبيقًا، فينفعه الله ﷻ بها نفعًا عظيمًا.

قال: (فَمَنْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ هَدَاهُ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ أَعْمَاهُ لَمْ تَزِدْهُ كَثْرَةُ الْكُتُبِ إِلَّا حَيْرَةً وَضَلَالًا) تجد الكتب عنده كثيرة والإطلاع عنده واسع؛ لكنه في جانب تقوىٰ الله والخوف من الله والعمل بطاعة الله والمحافظة علىٰ فرائض الدِّين والبعد عما حرم الله ﷻ؛ تجده في هٰذا الجانب ضعيف إلىٰ أبعد حد، ومُقصِّر إلىٰ أبعد حد، لا عن جهل، عنده علم وعنده دراية وعنده معرفة.

قال: (لَمْ تَزِدْهُ كَثْرَةُ الْكُتُبِ إِلَّا حَيْرَةً وَضَلَالًا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لابنِ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ: «أَوَلَيْسَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ؟! فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟»).

وهٰذه الرِّسالة المباركة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كنتُ قرأتها علىٰ الوالد حفظه الله وأفادني بإفادات، لمَّا وصلت إلىٰ هٰذا الموضع قال حفظه الله: (كذلكم يدل علىٰ هٰذا المعنىٰ قول الله ﷻ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ﴾ [الجمعة:٥] يعني: المعنىٰ الذي أشار إليه شيخ الإسلام واستدل له بحديث قول النبي لابن لبيد الأنصاري: «أَوَلَيْسَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ؟! فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟» قال الوالد: (أيضًا يدل لذلك قول الله ﷻ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة:٥]) ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي: حفظوها، ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بها، فصار مَثَلُهم المطابق لحالهم تمام المطابقة كمثل الحمار يحمل أسفارًا، يعني: لو أنَّ حمارًا وُضع فوق ظهره أنفس الكتب ومشىٰ في الطريق، وهٰذه الكتب النفيسة فوق ظهره، هل يستفيد منها؟! هٰذا مثل لهؤلاء، وهو مثل لكل من يحمل علمًا لكنه لا يبالي بالعمل به، ولهٰذا قال أهل العلم قديمًا: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود) لأن عندهم علم لكن لا يعملون به، ولهٰذا أورد شيخ الإسلام قول النبي ﷺ لابن لبيد الأنصاري: «أَوَلَيْسَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ؟! فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟» يعني: ماذا تغني عن الإنسان الكتب والإطلاع والقراءة والحفظ إذا كان لا يعمل ولا يقيم للعمل أي اهتمام؟! فيُضيِّع الفرائض؛ يُضيِّع الواجبات، يغشىٰ المحرمات ولا يبالي، فماذا تُغني عنه الكتب؟! وماذا تفيده إذا كان بهٰذه الصفة؟!.

ثم ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذه الوصية العظيمة المباركة بالدُّعاء، قال: (فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْهُدَىٰ وَالسَّدَادَ) وعرفنا قريبًا أن هٰذه الدَّعوة علمها النبي ﷺ علي بن أبي طالب، والحديث في «صحيح مسلم» قال: (علِّمني دعاء أدعو الله به قال: «قل: اللّٰهمَّ إني أسألك الهدىٰ والسداد») وهٰذه الدعوة جمعت الخير كله، قال: «واذكر بالهداية: هداية الطريق، واذكر بالسداد: سداد القوس» (اذكر بالهداية) عندما تسأل الله أن يهديك؛ اذكر بها هداية الطريق، عندما تكون في طريق وتريد بلدة معينة أو منطقة معينة وأنت لا تدري إلىٰ أين أو من أين تصل إليها؟ «اذكر بالهداية: هداية الطريق، واذكر بالسداد: سداد القوس» عندما يكون معك نَبل وتريد أن ترمي رمية فاذكر بالسداد: سداد القوس، يعني: أن يصيب السهم الرمية، وهٰذا يعني: أن من يدعو بهٰذا الدعاء: «اللّٰهمَّ إني أسألك الهدىٰ والسداد» يُتْبِع الدعاء سلوك طريق الهداية، ويحرص علىٰ السداد والإصابة، يحرص علىٰ السداد علىٰ الإصابة: إصابة هدي النبي ﷺ، وقد جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «إن هٰذا الدين يُسرٌ ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا» سددوا: يعني احرصوا علىٰ السداد؛ إصابة السنة، وإن لم تتمكن من إصابتها احرص علىٰ المُقاربة، «سددوا وقاربوا وأبشروا»، كل من هٰذا وهٰذا، من كان علىٰ السداد ومن كان علىٰ المقاربة، كُلٌّ له نصيب من البشارة.

الشاهد أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ دعا بهٰذه الدعوة العظيمة: (فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَرْزُقَنَا) وقوله: (أَنْ يَرْزُقَنَا): هٰذا فيه فائدة: أن الرزق لا يختص بالرزق الدنيوي؛ الذي هو المال والطعام والشراب؛ بل الرزق بمعناه الواسع يتناول الرزق الديني والرزق الدنيوي، والله ﷻ (الرزَّاق) يتناول هٰذا الاسم:

- الرَّزْق: الذي هو ما يقوم به البدن من وطعام وشراب ونحو ذلك.
- وأيضًا: يتناول الرَّزْق: ما تقوم به الروح من الإيمان والعلم والبصيرة في دين الله ﷻ.

قال: (فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْهُدَىٰ وَالسَّدَادَ وَيُلْهِمَنَا رُشْدَنَا وَيَقِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا)؛ (يُلْهِمَنَا رُشْدَنَا): يسأل الله ﷻ أن يُلهم العبد رشد نفسه، أحيانًا يستبين للإنسان الأمر، يستبين له الأمر ويتضح له؛ لكن نفسه لا تنهض للعمل، وفي الدعاء: «اللّٰهمَّ إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة علىٰ الرشد» بمعنىٰ أن الإنسان إذا تعلَّم وتفقَّه وتبصَّر؛ أن يعمل بما أكرمه الله ﷻ به من علم وبما مَنَّ عليه به من علم.

قال: (وَيَقِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا) ونفس الإنسان أمَّارة بالسوء، وكان عليه الصلاة والسلام في خطبة الحاجة يقول: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا» شر

النفس: هو أصل لوقوع الخطأ، النتيجة: هي سيئات الأعمال، سيئات الأعمال هي: نتيجة لشر النفس، فهٰذا جمع، بين المنبع: منبع الشر ونتيجته، مثله تمامًا الدعاء المأثور الذي يقال في الصباح والمساء وعند النوم: «اللّٰهمَّ فاطر السَّمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إلٰه إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن أقترف علىٰ نفسي سوءًا أو أجره إلىٰ مسلم» قوله: «أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه» هٰذه منابع الشر، منابع الشر: النفس الأمارة بالسوء والشيطان الداعي إلىٰ الشر والفساد، النتيجة: أن أقترف علىٰ نفسي سوءًا أو أجره إلىٰ مسلم، فهٰذا تعوُّذٌ بالله ﷻ من منبع الشر ومن نتيجته.

قال: (وَيُلْهِمَنَا رُشْدَنَا وَيَقِينَا شَرَّ أَنْفُسِنَا وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا) أي بعد أن مَنَّ علينا بالهداية نسأله أن يعيذنا من الزيغ، وفي القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران]، قال: (وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ) وهٰذه الدعوة مأخوذة من الآية الكريمة ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

ثم ختم الكتاب بما بدأ به وهو: حمد الله ﷻ، والصلاة علىٰ رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولمّا فرغتُ من قراءة الرسالة علىٰ الوالد قال حفظه الله: (وصية جامعة علىٰ اختصارها) وهي كذلك، نسأل الله الكريم الذي أكرمنا جميعا بهٰذه المجالس قراءة لهٰذه الوصية الثمينة النافعة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن ينفعنا بها، وأن يجعل ما تعلمناه حجّة لنا لا علينا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، إنه تبارك وتعالىٰ سميعُ الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

[الأسئلة]

سؤال (١): أحسن الله إليكم وبارك فيكم ونفعنا لله بما قلتم وغفر الله لنا ولكم وللمسلمين، يقول هٰذا السائل: متىٰ يقال هٰذا الدعاء الذي مر معنا: «اللّٰهمَّ رب جبريل وميكائل وإسرافيل»؟

الجواب: هٰذا الدعاء لا بأس أن يدعو به الإنسان في أي وقت، ولاسيما عندما يحتاج إليه في أمر ما، مثل ما أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لكن يعتني به عناية أكثر وعناية أعظم في الثلث الأخير من الليل يستفتح به صلاة الليل، كما أُثر ذلكم عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

سؤال (٢): أحسن الله إليكم، يقول: كيف يُجمع بين هٰذا الحديث: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته» وقوله ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة»؟

الجواب: ليس هناك تعارض بين الحديثين، فقوله: «كلكم ضال إلا من هديته» أي: أن العبد لا سبيل له إلىٰ العلم بشيء من أحكام الدين وشرائعه وفرائضه وواجباته إلا بتعلُّم العلم المُتلقىٰ عن الأنبياء والمرسلين، ولا سبيل إلىٰ هٰذا العلم إلا عن طريق الوحي، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شأن نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ في سورة الضحىٰ ومعنىٰ ذلك جاء موضَّحًا في سورة الشورىٰ في آخر آية منها أو أواخرها قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ:٥٢] أي أن تفاصيل الشرائع وتفاصيل الدين وغير ذلكم لا يمكن العلم بها إلا من طريق الوحي الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ أنبيائه وبلغوه لأممهم، فالناس كلهم ضُلَّال إلا من أكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتلقي الوحي الموروث عن الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، ومن حيث أصل خِلقة الإنسان فهو مولود علىٰ الفطرة، قال: «فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وليس معنىٰ كونه مولودًا علىٰ الفطرة أنه علىٰ علم بالإسلام وتفاصيله وأحكامه ونحو ذلك، فهٰذه لا سبيل إلىٰ العلم بها إلا بالوحي الموروث عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

سؤال (٣): أحسن الله إليكم يقول: هل يجوز أن نقول: لله ورسوله المِنَّة والفضل، أي بسبب الهداية وظهور الدين؟

الجواب: المِنَّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، المنة لله عَزَّ وَجَلَّ، وهو الذي منَّ علىٰ المؤمنين ببعث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ

ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٦٤] فالمِنَّة لله وهو المانّ ﷻ والمتفضِّل، ومن أعظم مننه علىٰ عباده وأجلها قدرًا وأرفعها شأنًا مبعث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

سؤال (٤): أحسن الله إليكم، يقول: ماذا يفعل الذي يُوفَّق للعلم ولا تحصل له التقوىٰ ولا الخشية مقابل هٰذا العلم؟

الجواب: ينظر في سبب ذلك، وينظر أيضًا في أبواب العلم المفيدة في هٰذا الجانب وما فرَّط فيه من تحصيله منها واستفادته منها، ويحرص علىٰ الدعاء، فهٰذه ثلاثة جوانب ينبغي مراعاتها في هٰذا الباب .

سؤال (٥): أحسن الله إليكم، يسأل عن دعاء الاستخارة متىٰ يُقرأ هل في داخل الصلاة أم في خارجها؟

الجواب: الأمر في ذلكم واسع سواء دعا بالدعاء قبل أن يُسلِّم وهو قول لأهل العلم أو أتىٰ به بعد أن يسلم، فالأمر في ذلكم واسع.

سؤال (٦): أحسن الله إليكم، يسأل عن تسمية البنت (إيمان)؟

الجواب: مثل هٰذه الأسماء جاء في السنة النهي عن نظائر لها، لمَا في هٰذه الأسماء من تزكية، والله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢] وإذا قيل لأحد: أمؤمن أنت؟ يقول: مؤمن إن شاء الله؛ لأن الإيمان يشمل الدين كله بتفاصيله وحقائقه، يتناول ذلك كله.

سؤال (٧): أحسن الله إليكم، يقول: نرجو من فضيلتكم توضيح ما جاء في قصة موسىٰ والعبد الصالح بإرجاع الإرادة في قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف:٧٩] وفي الثانية ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف:٨٢] ؟

الجواب: هٰذه ثلاثة مواضع وردت في هٰذه السورة، في قصة موسىٰ عليه السلام مع الخضر، وفي كل موضع منها اختلفت الصِّياغة.

فمرة قال في الموضع الأول: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف:٧٩]؛ لأن هٰذا عمل نَسَبَه لنفسه، عيب في السفينة وخرق لها فنسبه لنفسه، أي نسب هٰذا العيب وهٰذا الخلل الذي يترتَّب عليه مصلحة لأصحاب السفينة، ففي هٰذا الموضع نَسَبَه إلىٰ نفسه قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩].

وفي الموضع الثاني: وهو قتل الغلام؛ قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا﴾ [الكهف:٨١] وفي الموضع الثالث قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف:٨٢] فالشاهد أنه في كل موضع أشار إلىٰ معنىٰ متعلق بذلك، ويمكن مراجعة كلام أهل العلم في ذلك، والإمام الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ له رسالة أفردها في هٰذه الكلمات الثلاث: «فأردنا، فأراد ربك، فأردت» أفردها في رسالة وبيَّن ما فيها من حِكم، ولا أدري هل طُبعت؟ سبق أن قرأتها كاملة مخطوطة؛ لكن جمع فيها هٰذه المعاني الثلاثة وما فيها من حِكم.

هٰذا ونسأل الله الكريم أن ينفعنا جميعًا بما عَلَّمنا، وأن يزيدنا علمًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، إنه سميع مجيب.